روايات الهلال للأولاد والبنات

سلسلة تاريخ مصر

Looloo
www.dvd4arab.com

نوسرا.. قلب القمر

سامي عبد الوهاب

قبل أن تقرأ

التاريخ لم ولن يكون مجرد حواديت نتسلى بها قبل النوم .. ولكنه المؤشر الأهم الذى يحكم على مدى ثراء أو إفلاس الأمم والشعوب .. فالأمة التى تمتلك التاريخ والحضارة هى الأكثر ثراء وعراقة ولذلك تصبح مثل هذه الأمم مستهدفة ممن لا يملكون التاريخ والعراقة .. وربما يفسر لنا هذا تلك الحملة الشرسة ضد بؤرة التاريخ والحضارة والمتمثلة فى العالم العربى .. تلك الحملة التى تتلخص فى (قائمة) من المطالب تبدأ بتجديد الخطاب الدينى وتنتهى - ربما - بتجديد الخريطة الوراثية لشعوب هذه المنطقة .. ! ومن المؤسف أن البعض منا إما عن قصد أو عدم معرفة يشارك فى هذه الحملة الشرسة وذلك بتهميش أو إلغاء التاريخ والجغرافيا فى التعليم والإعلام مما يمثل أكبر الخطر على (الذاكرة الوطنية) لدى الأجيال الجديدة من الأطفال والشباب .. ولكى نتصدى لمحاولات (تجريف الوعى الوطنى) وإنتشار (الأمية الوطنية) كانت فكرتنا الجديدة فى الجمع ما بين التاريخ والأدب فى (سلسلة تاريخ مصر) .. تلك السلسلة التى يشارك فى كتابتها مجموعة من ألمع أدباء مصر - وتأتى كأول محاولة - ربما فى العالم كله لأن تكتب أمة تاريخها بالأدب .. وتهدف إلى الحفاظ على التاريخ وتقديم النموذج الذى يحتذى ، والشحن بالتحدى والإرادة لصناعة مستقبل لا يخجل منه التاريخ.

رئيس التحرير

Looloo
www.dvd4arab.com

مقدمة
مراكز القوى

تؤكد حقائق التاريخ على أن (السلطة المطلقة.. مفسدة مطلقة) .. ولكن الأسوأ من هذا أن تتحالف مثل هذه السلطة مع المرجعية الدينية المتزمتة أو مع محترفى الإلتفاف حول السلطان من أصحاب الثروة والنفوذ.. وذلك لأن مثل هذا التحالف يعمل على توالد الكثير والكثير من الفاسدين والغاصبين والظالمين الذين يحبسون الحاكم فى شرنقة يصنعونها من الأكاذيب والأوهام.. ويحبسون الشعب فى سجن كبير من المظالم، والغريب أن مثل هذه الأوضاع ليست وليدة العصر الحالى ولكنها تضرب بجذورها فى عمق التاريخ وكانت واضحة جلية فى مصر الفرعونية خاصة مع بداية عصر الإضمحلال الأول الذى بدأ من الأسرة السابعة وحتى الأسرة العاشرة وقد بدأت إرهاصات هذه الأوضاع مع نهاية الأسرة الرابعة وبداية الأسرة الخامسة (حيث تدور أحداث هذه الرواية) خاصة بعد وفاة الملك خوفو عندما انقسمت الأسرة الحاكمة إلى فروع يتربص كل منها بالآخر لدرجة أن المصادر

التاريخية تختلف أحيانا فى ترتيب أسماء الملوك ومدد توليهم الحكم.. وقد ترتب على ضعف ملوك هذه الفترة نمو طبقة من أبناء الشعب الذين استقوى بهم الحاكم واستبدوا هم بالشعب.. وفى الوقت نفسه برزت أيضا طبقة الكهنة فى ظل الصراع بين أتباع الإله الجديد (رع) والإله القديم (بتاح).

ورغم الانجاز الكبير فى عصر الأسرة الرابعة (بناء الأهرامات) إلا أن كبار الموظفين الذين أشرفوا على هذا الإنجاز.. قد نجحوا فى امتلاك الثروة والنفوذ لدرجة أن بعضهم وصل إلى كرسى الوزارة الذى كان قاصراً على الأمراء وبعضهم تزوج من الأميرات.. مما جعل سلطتهم تتفوق أحيانا على سلطة حكام الأقاليم.. وقد أدت هذه الطبقات الاجتماعية الجديدة أو مايمكن أن نطلق عليه (مراكز القوى) إلى وهن الحكومة المركزية وتقوية شوكة المؤسسة الدينية.. مما أدى فى النهاية إلى انهيار دور الحكومة المركزية والإسراع نحو عصر الاضمحلال الأول.

ولم تتوقف رواية (نوسر.. قلب القمر) عند مجرد بيان مخاطر ومساوىء مراكز القوى، ولكنها تدخل بنا إلى قضية فكرية شائكة وهى قضية التوحيد.. وهل بدأ مع إخناتون، أم أن عقيدة التوحيد بدأت خلال حكم

www.dvd4arab.com

الأسرات الأولى وتميل الرواية إلى ترجيح كفة وجود عقيدة التوحيد خلال حكم الأسرات الأولى.. وهو النهج الذى نادت به المدرسة التطورية فى الأنثربولجى خلال القرن التاسع عشر والتى تؤكد على أن الديانة المصرية قد عرفت (التوحيد) منذ فترة مبكرة.. وأنها قد تطورت من الوحدانية إلى التعدد.. وتستند حجج من ينادى بذلك على أن الإله (نون) يصلح لمبدأ الوحدانية التى تطورت إلى تعدد يشمل الآلهة (أتوم ـ شو ـ تفنوت ـ جب ـ ثوت ـ أوزير ـ ست ـ نفتيس ـ إيست) على اعتبار أن هذه الآلهة المتعددة ليس إلا تجليات للإله الواحد (نون).. وقد اعتمد علماء هذا النهج أيضا على أن لفظ (نثر) المجرد يعنى إله، وقد تردد هذا اللفظ فى العصر المبكر والدولة القديمة وتضمنته أسماء بعض الأشخاص (الإله يعيش ـ الإله كريم.. إلخ).. كما اعتمد هؤلاء العلماء على ورود كلمة إله مجردة فى نصوص أدبية مثل تعاليم (بتاح حتب) ورأوا فى ذلك دلالة على وعى النخبة المثقفة بوحدانية الإله مع اسناد التعدد إلى العامة.

ورغم كل هذه الحجج والأسانيد إلا أن حقائق التاريخ تؤكد على أن تطور الديانة قد بدأ بالتعدد وذلك انطلاقا من نتائج عصور ماقبل التاريخ التى

أثبتت وجود أسماء لآلهة مثل (ست ـ حور ـ حتحور ـ خنتى أمينتو ـ حبو ـ حج ور) وغيرهم كثير مما يدل دلالة قطعية على وجود التعدد منذ البداية.. كما تضمنت نصوص الأهرام (منذ نهاية الأسرة الخامسة) العديد من أسماء الآلهة مثل (بتاح ـ أوزير ـ رع ـ سخمت ـ حقات ـ ماعت) وآخرين.. مما يدل على ترسخ وجود إلهى متعدد الأسماء والوظائف منذ البداية وأن التطور نحو الوحدانية قد حدث تدريجيا.

ويستند العلماء الذين يؤكدون على مبدأ التعدد فى الديانة المصرية القديمة على عدة عوامل، أهمها وجود الآلهة الإقليمية العديدة ورغبة الملكية فى استخدام الدين فى احكام السيطرة ثم تطور وتعقد النظام الكهنوتى ودور الكهنة فى ترسيخ سيطرة آلهتهم ودور مؤسسة الملكية فى تأليه الملك وجعله وسيطا بين عالم الآلهة وعالم البشر.

وتكمن أهم ملامح هذا التعدد فيما يمكن أن نطلق عليه (التسامح) حيث أن الإيمان بإله معين لم يكن يمنع عبادة آلهة أخرى أو إنكار وجود الآلهة الأخرى.. كما أن الديانة المصرية قد خلت من كل أشكال الصراع بين الآلهة إلا نادراً جداً وفى حالات متأخرة.

وقد ربط الدين بين الآلهة والرموز الحيوانية وهذا

Looloo
www.dvd4arab.com

لايعنى عبادة النوع الحيوانى كله وإنما استخلاص بعض النماذج كرموز.. وعندما بدأت دعوة التوحيد على يد إخناتون بدأت فكرة سمو إله على الآلهة الأخرى فظهرت ألقاب مثل (آمون ملك الآلهة) .. كما ظهر اندماج أكثر من كيان إلهى فى كيان واحد (آمون رع مثلا) كما ظهرت الأسرات المقدسة الثالوثية (آمون - موت - خونسو) - (بتاح - حتحور - نفرتم) - (إيزيس - أوزوريس - حورس) .. إلخ.

وقد ذكر نشيد من عصر الرعامسة (الأسرة ١٩) آمون ورع وبتاح آلهة مصر الكبرى آنذاك باعتبارها إله واحد.. وذلك بتأثير من الوحدانية الأتونية التى جاء بها إخناتون بما يؤكد على أن وجود الإله الذى يسمو على الآلهة الأخرى ظاهرة لم توجد إلا مع إخناتون وقد سبقتها ظواهر تعدد الآلهة والإيمان بإله من دون إنكار الآلهة الأخرى.. وبعد رحيل إخناتون سقطت وحدانية أتون وعاد التعدد إلا أن فكر التوحيد ظل مؤثراً حتى عصر الرعامسة.

وتتبع فكرة تعدد الآلهة فى مصر القديمة من تعدد الأصول العرقية للمجتمع المصرى القديم (رعاة وبدو من الصحراء الغربية والشرقية - فسكان وادى النيل - الهجرات الوافدة من بادية الشام) وقد انصهر كل

هؤلاء فى بوتقة واحدة فى عصر ماقبل التاريخ، ورغم ذلك احتفظ كل منهم بتراثه الفكرى فى شكل كيانات مقدسة أتى بها من إقليمه السابق واحتفظ بها فى وطنه الجديد مما ساعد على ظهور الآلهة المحلية التى عملت على وجود حركة التفاعل الثقافية فظهرت آلهة واندثرت آلهة وتحالفت آلهة مع أخرى إلى أن انتصر أتباع الإله حورس وكونوا الملكية الأولى فأصبح حور هو الإله الأول للدولة وأصبحت ديانة الشمس هى العقيدة الرئيسية.. ثم تفوقت منف فأصبح الإله (بتاح) صاحب الرصيد الأكبر فى عقيدة الدولة.. وهكذا.. ثم أصبح للملكية دور فى التشكيل الدينى من خلال حرصها على إرضاء مختلف الآلهة كما حرصت على تأليه الفرعون نفسه.. كما كان لتعقد ونمو طبقات الكهنة دوره فى تعزيز تعدد الآلهة فكل مجموعة من الكهنة تدافع عن الإله الخاص بها.. لكى تدافع عن مصالحها ونفوذها.. وتؤكد كل هذه الحقائق على أن مصر كيان أسطورى وبوتقة عملاقة عملت على اذابة كل العناصر الوافدة عليها فى عنصر واحد فى إطار من التسامح الذى يعد الملمح الأهم لما يمكن أن نطلق عليه (المواطنة) .. بما يعنى أن هذه المواطنة ليست اكتشافا أو اختراعا جديدا ولكنها جزء

www.dvd4arab.com

أصيل من بنية الدولة المصرية منذ عهد الفراعنة وحتى الآن.. ورغم أن هذا التسامح يمثل العمود الفقرى للدولة المصرية فى كل عصورها إلا أنه قد يتعرض لكثير من المخاطر خاصة إذا حدث التزاوج مابين السلطة وأصحاب الثروة والنفوذ (مراكز القوى) أو إذا حدث تزمت دينى فى أى اتجاه أو إذا حدث عزل لأى فصيل سياسى أو دينى تحت أى دعاوى مما يؤدى إلى وجود كثير من الاحتقان الذى يؤثر سلبا على كل قيم التسامح ورغم كل هذا تظل مصر دائما عنوانا ساطعا للتسامح وقبول الآخر سواء السياسى أو الدينى.. حتى لو كره الكارهون.

محمد الشافعى

الملك والكهنة

ظهر الضيق والتأفف على وجه الملك «شبسسكاف» عندما أخبره الحاجب أن كبير كهنة رع يريد لقاءه.. قال فى نفسه «ماذا يريد هذا الرجل؟ ألا يشبع أبدا؟!» أشار بيده للحاجب أن يدخله، فهو فى الحقيقة لا يستطيع أن يفعل غير ذلك، خرج الحاجب مسرعا، مال الملك على كبير وزرائه قائلا:

– لن يستريح هؤلاء الكهنة حتى يحصلوا على العرش نفسه..

– ليس هذا خطؤك يامولاى، إنه خطأ الملوك الذين سبقوك وسمحوا لهم بهذا التدخل فى شئون القصر، إنهم ما كانوا يجرؤن على السير فى الشوارع أيام الملك العظيم «خنوم خوفرى».

وانقطع الهمس اثر دخول كبير الكهنة«نب حبت رع» بكبرياء وخيلاء أثار فى الملك الرغبة فى الإطاحة برأسه لكنه ابتلع غيظه ورسم ابتسامة باهتة على وجهه، تقدم الكاهن ببطء فى اتجاه العرش وانحنى انحناءة خفيفة أمام الملك قائلا:

– التحية للملك العظيم.. ملك الأرضين.. حفظه الاله المعظم رع ورعاه.

– وحفظتك الآلهة يا كبير كهنة رع.. تفضل بالجلوس..

تراجع كبير الكهنة خطوات وهو رافع رأسه، واتجه ليأخذ مكانه بين حاشية الملك وجلس صامتا فيما واصل الملك حديثه الذى انقطع بدخول الكاهن معبرا عن أمله فى إرسال بعثة للقيام بالحفائر واستخراج الصخور من أسوان فى أسرع وقت ممكن، وكان كبير كهنة رع يرمقه وهو يتحدث وعلى شفتيه ظلت ابتسامة ساخرة وكأنه يقول له.. «لن تعيش حتى ترى أى من آمالك تتحقق!».

كان الجهد والاعياء باديان على وجه الملك، ولا يدرى أحد إن كان هذا بسبب السن المتقدم أم بفعل الأحداث التى تجرى من حوله، أو كلاهما

www.dvd4arab.com

معا.. فهو قد تولى العرش وسنه يقترب من الخمسين، وجاء توليه الحكم فى فترة اضطرابات عنيفة، اختلط فيها الخلاف بين أفراد الأسرة الملكية وصراعهم على العرش مع المحاولات المستمرة من كهنة الشمس للسيطرة على القصر والتحكم فى الملوك، حتى أن من لا يأتى على هواهم، يدبرون المؤامرات لإقصائه عن العرش، وكان «شبسسكاف» يشعر أنه غير قادر على فعل شىء، فالموارد المتاحة لديه قليلة بعد أن أنفق جده العظيم «خنوم خوفرى» الكثير فى بناء مقبرته الضخمة، وحذا خلفاءه «خفرع ومنكاورع» حذوه حتى أصبحت الخزينة خاوية أو تكاد.. وزاد الطين بلة هؤلاء الكهنة الذين يرغبون فى تحويل ما تبقى من موارد البلاد لبناء وتجميل معابدهم بعد أن تزايد نفوذهم وقويت شوكتهم فى مقابل الضعف والوهن الذى أصاب كهنة بتاح.

أدرك الملك أن كبير الكهنة يريد أن ينفرد به – وهذا دأبه دائما كلما أراد شيئا لنفسه أو لمعبد من معابده – فأشار للحاشية بالانصراف، نظر إلى الكاهن نظرة تساؤل دون أن يبدأه بالكلام، رسم الكاهن ابتسامة على شفتيه واقترب من الملك هامسا بالرغم من عدم وجود أحد وقال..

– لقد أمرت منذ الأمس باقامة الصلوات للإله العظيم رع – باعث الضياء وواهب الحياة – كى يهب الملكة المبجلة ولدا ذكرا يكون وليا لعرشكم بعد عمر طويل وسعيد لجلالتكم.

– باركتكم الآلهة يا كبير الكهنة.. وأشكر لك اهتمامك وأقدره.

وقبل أن يستطرد الكاهن فى الكلام والمطالب رأى الملك أن يبدأ الهجوم بموضوع يعلم أنه يثير حساسية الكاهن فباغته قائلا..

– نما إلى علمى أن كهنة بتاح غاضبون، وأنهم يرون أن معابد الشمس قد استأثرت باهتمامنا دون معابد بتاح، وأنا أخشى أن يؤدى غضبهم وتذمرهم إلى عواقب وخيمة يمكن أن تؤثر على الأمن والهدوء فى البلاد.. فما رأى كبير كهنة رع..؟ كيف يمكن أن نرضيهم؟

– هذا أمر يسير يا مولاى، ولا أظن أنه يصل إلى حد تهديد الأمن،

ومع ذلك فقد فكرنا فى هذا الأمر، فنحن لا نرضى بإغضاب أحد، خاصة الإله بتاح الذى نحترمه ونبجله، ولهذا الأمر جئتك اليوم يا مولاى.. لقد رأينا أن نعطيهم منصبا هاما يكون فيه رضاهم.

بلغ الغيظ والغضب بالملك حدا كبيرا بسبب لهجة الكاهن الذى يتحدث وكأنه هو الملك، يعطى ويمنع حسب هواه ورغبته، وعلى الجانب الآخر فطن إلى حكمة هذا الحل وراءه هو الحل الوحيد الممكن لهذه المشكلة العويصة، ولكن.. أى منصب يمكن أن يرضى كهنة بتاح! صحيح أنهم أقل عددا من كهنة رع، وصحيح أنهم أضعف شوكة، لكن لا يمكن تجاهلهم كلية، سدد الملك نظرة حادة إلى وجه الكاهن وهاله ما به من تجاعيد تنبىء بعمره الذى طال أكثر مما يود الإنسان وقال بلهجة غامضة لا يستطيع أحد أن يجزم بما تحمله إن كان سخرية، أو استهزاء بمحدثه، أو تعبيرا عن حقد خاص يكنه لهذا الرجل..

– أرجو ألا يكون هذا المنصب هو العرش نفسه!

لم يتمالك الكاهن نفسه من الضحك، والملك يرقب فمه المفتوح الخالى من الأسنان والوجه الذى يذكره بالجثة المحنطة.

– لا.. لا.. لا أرى أن غضبهم يمكن أن يصل إلى هذا الحد يامولاى.. وليظل العرش مباركا بك وبنسلك المقدس.

وكف تماما عن الضحك، واتخذ وجهه هيئة جادة، ومال على الملك قائلا..

– يكفيهم يا مولاى الملك العظيم منصب الوزارة والقضاء.

صاح الملك وقد فاجأته جرأة الاقتراح.

– ماذا؟! ماذا تقول؟ الوزارة والقضاء؟! ألا تعلم أيها الكاهن أن هذا المنصب قاصر على ولى العهد.. وهذا ما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا؟

لم يهتز الكاهن ولم يطرف له جفن، هو يعلم جيدا أنه اقتراح جرىء، وأنه تغيير لناموس قديم راسخ، لكنه كان على يقين أيضا من أنه اجراء ضرورى، وأن كهنة بتاح لن يرضوا بأقل من ذلك، بل ويعلم كذلك بعدم

www.dvd4arab.com

قدرة الملك على الرفض رغم هلعه الواضح، ورأى أن يخفف عن الملك قليلا، فأعاد إلى وجهه ابتسامته الباهتة وهمس قائلا:

– مولاى.. لا ضير من أن نغير بعض الأوضاع المستقرة منذ سنين طويلة، فالعالم نفسه يتغير كل حين، خاصة إذا كان هذا التغيير ضروريا لأمن البلاد واستقرارها، كما أنه يامولاى لا ينقص من هيبة العرش وقداسته، بل إنه سيبدو كهبة من الملك لرعاياه وعطية يجب أن يشكر عليها ويحمد.

أخذ الملك يهز رأسه لأعلى وأسفل دون أن يرد أو يتكلم وبدا أنه استغرق فى تفكير عميق يوازن بين ما عرض عليه وما يمكنه أن يفعل إزاء هذا الأمر، ولم ينتبه لوقوف الكاهن الأكبر طالبا الإذن بالانصراف وهو يكرر دعواته للآلهة أن تساعد الملكة وتهبها ابنا قويا يرث عرشا عظيما.

تابعته عينا الملك حتى اختفى، وتمنى فى نفسه ألا يرى سحنته مرة أخرى، وقرر أن يذهب إلى مخدعه ليستريح، لكنه فوجىء بأنه غير قادر على النهوض بمفرده..

(٢) الملكة والوصيفة الوفية

دخلت الوصيفة «محيت» مندفعة على الملكة «عنخ تاوى» وهى فى غاية الانزعاج والرعب يبدو على وجهها والكلمات تتدافع فى فمها فلا تكاد تبين، لكن الملكة التى كانت تعيش حالة من القلق والخوف قدرت أن ثمة كارثة توشك أن تقع، وأن هذه الكارثة لابد وأنها تتعلق بحملها الذى تحمله وتوشك أن تضعه خلال أيام أو ربما تكون ساعات قليلة، فغاص قلبها بين جنبيها وجحظت عيناها ولم تقو حتى على السؤال عما حدث أو على وشك الحدوث.

كانت «محيت» أكثر من وصيفة بالنسبة للملكة حتى أنها كانت تصفها أمام المقربين لها بالصديقة المحبة، فهما متقاربتان فى السن، ارتوى

Looloo
www.dvd4arab.com

جسداهما معا من ثدى واحد، هو ثدى أم «محيت» التى تعمل مرضعة بالقصر، وعاشتا طفولتهما معا تلهوان سويا فى حديقة القصر، وتتسابقان فى طرقاته الترابية الناعمة، وتسبحان فى بحيرة القصر، بل وأحيانا كانتا تأكلان معا تنفيذا لرغبة «عنخ تاوى»، ولما كبرت «عنخ تاوى» تزوجت من «شبسسكاف» الذى كانت تحبه رغم فارق السن بينهما ورغم أنه كان عازفا عن العرش، كما تزوجت محيت من أحد ضباط حرس شبسسكاف بتدبير من «عنخ تاوى» حتى تظل بجانبها دائما..

– سيدتى.. سيدتى «عنخ تاوى» إنهم.. إنهم يزمعون قتله.. إن.. إن جاء ولد ياسيدتى.. إن جاء المولود ولدا فسيقتلونه يا سيدتى.. يا إلهى.. ماذا نفعل آه.. تذكرت.. لا يوجد غيره يمكن أن يساعدنا.. نعم.. سوف أذهب إليه ولو كان فى أقصى الجنوب.. سوف أذهب إليه..

وانطلقت المرأة دون أن تسمع ردا أو حتى تستأذن سيدتها التى مدت ذراعيها فى اتجاهها ودموعها تسيل دون انقطاع وهى ترجوها بصوت واهن.

– لا تتركينى وحدى يا «محيت» لا تتركينى.

لكن «محيت» كانت قد انطلقت كالسهم لا تلوى على شىء بحثا عن زوجها الضابط فاصطدمت بكتلة من الحرس خارجة من قاعة العرش وبينهم شخص يبدو مريضا أو ميتا لم تهتم، تفرّست فى الجمع أمامها فلمحت زوجها، انطلقت إليه وجذبته بشدة من ملابسه، نظر إليها شذرا وكاد أن يلكمها، لكنها صرخت به:

– انقذنا.. انقذنا يا «منتو» .. أنقذ الملكة يا «منتو».

– ما بك يا امرأة؟ ألا ترين ما نحن فيه.. ماذا تريدين؟

– أقول لك إن الملكة فى خطر داهم.. ولابد أن ننقذها فى الحال..

– الملكة؟! يا للعجب.. الملك والملكة! فى ساعة واحدة..! ياللآلهة القاسية.

– ماذا تعنى بالملك والملكة؟ هل هذا هو الملك؟ هل مات؟

سألته صارخة وهى تجره بشدة فى اتجاه مخدع الملكة وتواصل كلامها وقد خفضت من صوتها خشية أن يسمعها أحد من الخدم.

– إنهم يتآمرون على قتل الطفل إذا كان ولدا.. وعلينا أن نجد طريقة لانقاذه، فربما يأتى ولد بالفعل.. هل كنت تقول أن الملك مات؟ يا له من يوم! يموت يوم ولادة ابنه؟! يا له من يوم.. يجب أن تجد طريقة لانقاذ المولود.. يجب، كانا تقريبا يركضان بين الدهاليز والطرقات، ومنتو لا يعرف ماذا يراد منه بالضبط لذا توقف فجأة والتفت إلى امرأته قائلا..

– كفى عن الثرثرة والكلام، لقد فهمت ما تريدين، اذهبى أنت وامكثى بجانب الملكة وسوف أوافيكم بعد أن أدبر أمرى.. هل فهمت؟

وانطلقت «محيت» مسرعة إلى مخدع الملكة وهى تكلم نفسها سوف يجد طريقة لإنقاذ المولود، إن منتو شجاع وحسن التصرف، نعم سيجد طريقة، إنه زوجى وأنا أعرفه جيدا.. يا له من يوم حزين.. الملك يموت فى يوم كهذا! يموت دون أن يرى ولده!.. هذا إن كان ولدا.. وربما يكون المولود بنتا كسابقتيها.. ربما.. لكن قلبى يقول لى أنه سيكون ولدا، وهنا كانت قد وصلت إلى مخدع الملكة التى كانت حالتها قد ساءت إلى حد كبير، فطمأنتها وأكدت لها أنها ستكون بخير وأمان ولن يصيبها مكروه، وتحولت نظرات اللوم فى عينى الملكة إلى نظرات امتنان وشكر وعرفان وهدأت نفسها قليلا، تنهدت الملكة طويلا ونظرت إلى محيت متسائلة عن أخبار الملك ولماذا لم يطل عليها منذ صباح اليوم، وعندئذ تلعثمت محيت ولم تعرف بم ترد.. هل تنقل لها ما شاهدته منذ قليل؟ أم تتركها الآن ثم تخبرها فى الوقت المناسب؟ وحسمت رأيهافردت قائلة:

– يا مولاتى.. إن الملك مشغول جدا اليوم كما يبدو.. لكن دعينا نفكر ماذا سنفعل لإنقاذ المولود.. إن قلبى يحدثنى يامولاتى بأنه سيكون ولدا.. أنا على يقين من هذا.. ومولاتى.. بم تشعر؟

توجعت الملكة قائلة:

– أشعر بأننى سوف ألد اليوم أو الساعة، هذا الحمل يا محيت لم

Looloo
www.dvd4arab.com

أعهده من قبل، الألم لا يطاق يا «محيت»، ليس كالمرات السابقة..

حاولت «محيت» أن تغتصب ابتسامة رغم ما بها من أحزان لتخفف عنها وتضاحكت.

– ألم أقل لك يا مولاتى، هذا لأنه ولد، إن حمل الأولاد يختلف عن حمل البنات، هذا ما قاله الأقدمون، وتعلمناه عن أمهاتنا وجداتنا.

وظلت تحاول التسرية عنها، فأخذت تستعيد معها ذكريات الأيام الخالية الجميلة، وبين الحين والحين تخرج لتلقى نظرة فى الخارج، فهى تنتظر عودة «منتو» من ناحية ومن ناحية أخرى تطمئن حتى لا يصل الملكة خبر مرض أو موت الملك، وأخيرا وصل «منتو» كما وعد، انتظر حتى واتته الفرصة فتسلل إلى مخدع الملكة، طرق الباب برفق، فخرجت له محيت بلهفة ولم يدع لها فرصة للكلام والثرثرة فقد ألقى إليها بتعليمات محددة وبسرعة، أمرها بأن تخرج بالملكة من باب القصر الخلفى مع حلول الليل إلى بيته الواقع على شاطىء النهر وشدد عليها بألا يراهما أحد وتقيما هناك حتى تلد الملكة ريثما يبحث عن أسرة تأوى المولود حتى تستقر الأمور، وقبل أن تهم بالكلام مد يده فسد فمها قائلا بحزم..

– نفذى ما أمرتك به بحذافيره وإلا..

وتركها وانطلق مسرعا إلى حيث كان الطبيب ومساعدوه يحاولون إنقاذ حياة الملك حتى لا يشعر أحد بغيابه فيشك فى الأمر.

كان الليل قد بدأ يرخى سدوله على القصر الحزين وما أن شاع خبر مرض الملك الشديد وعدم قدرته على الحركة حتى ساد هرج ومرج واختلطت الأصوات ولم يعد أحد يدرى ماذا سوف يحدث، وكانت الفرصة مهيأة لـ«محيت» كى تهرب من القصر بأمان ودون أن يحس بها أحد، ولكى لا تسأل الملكة عن شىء أخذت تحثها على الإسراع قبل أن ينتبه إليهما أحد من الخدم أو الحراس، ووصلتا إلى البيت بسلام وإمعان فى التخفى لم تشأ «محيت» أن توقد المشعل، وأخذت الملكة التى بدأت حالتها تسوء إلى حجرة مريحة فأضجعتها على الفراش وراحت تعد لها شيئا من

الطعام، ثم انصرفت لإعداد ما يلزم استعدادا للوضع الذى بات متوقعا الليلة أو على أكثر تقدير فى اليوم التالى.

وفى الفجر سمعت «محيت» طرقا خفيفا على الباب فاتجهت إليه بحذر، نظرت من كوة ضيقة فأبصرت زوجها «منتو»، فتحت الباب بهدوء فدخل، ولما طالعت وجهه وأبصرت مظاهر الإعياء والإجهاد عليه، شهقت شهقة مكتومة، وقبل أن تتفوه بكلمة بادرها قائلا:

– اسمعينى جيدا.. لقد جئت فقط لأطمئن عليكما فليس لدى وقت، لقد مات الملك والأحوال فى غاية الاضطراب ولا أحد يعلم ماذا سيحدث، ولقد أحسنت صنعا بإبعاد الملكة.. كيف حالها الآن؟

– لقد وضعت منذ حوالى ساعة، وضعت ولدا جميلا كالقمر، (طفل رضيع قوى) كالثور؟!! وحالتها مطمئنة للغاية، لكنها قلقة على الملك وأنا لم أخبرها بموته أو مرضه فلم أكن أعلم شيئا على وجه اليقين.

– لا بأس، يمكنك الآن أن تخبريها، فلن يظل الأمر سرا بعد الآن، سوف أعود الآن إلى القصر حتى لا يشعر أحد بشىء، يجب أن تظل الملكة بعيدة عن الأنظار لعدة أيام فقد بدأ البعض يسألون عنها بعد أن اكتشفوا اختفاءها، لحسن الحظ لم يكن السؤال ملحا، فلتبقى هنا حتى تسترد عافيتها، وأكون أنا قد تدبرت أمرى..

واستدار لينصرف فأمسكت محيت به من ثيابه قائلة..

– ألن تأكل شيئا.. أنت بالتأكيد لم تذق طعاما منذ الأمس.

جذب ثيابه من بين يديها وانطلق دون أن يرد..

(٣) هدية الآلهة

كانت «حنوت – سن» زوجة «مرى إن بتاح» الذى يعمل حارساً فى مخازن الحبوب الملكية مستغرقة فى النوم كعادتها فى مثل هذا الوقت من الليل، وكان من عادة زوجها «مرى» أن يتسلل فى هدوء عند عودته من

Looloo
www.dvd4arab.com

العمل فى الفجر ويغير ملابسه وينام دون أن يزعجها، لكنه فى هذا اليوم لم يكف عن الصياح منذ دخل..

– قومى يا «حنوت – سن».. انهضى يا عزيزتى.. ليس هذا وقت النوم.. قومى وانظرى ماذا أرسلت الآلهة إلينا..

هى لا تزال بين النوم واليقظة، يخيل إليها أنها تسمع بكاء طفل رضيع خمنت أنه من عند الجيران، ولم تع بعد لماذا يصيح مرى، ولماذا يوقظها اليوم على غير عادته بدأت تقترب من الصحو الكامل فنهضت جالسة فى فراشها الأرضى، فركت عينيها وأجالت بصرها فى أرجاء الغرفة، مازالت معتمة ولم تتحقق من شىء بعد، قالت بصوت يغلفه الوسن..

– ماذا بك اليوم يا «مرى»..؟ لماذا توقظنى فى هذا الوقت..؟

جاءها صوته من خارج الغرفة مرحاً سعيداً وهو يهدهد الرضيع ويترنم له مغنياً يحاول أن يجعله يكف عن البكاء..

– قومى ياعزيزتى وانظرى لهذا الوجه الجميل، انظرى..

كان قد دخل الغرفة وقرب منها الطفل وهو يصرخ باكياً، نظرت إليه بدهشة بالغة ومدت يديها تتناوله منه برفق وتضمه إلى صدرها بحنان، نقلت بصرها بينهما أكثر من مرة، تساءلت وهى لاتزال غير واعية لما يحدث..

– من أين أتيت به يا «مرى»..؟ ابن من هذا..؟

– ليس ابن أحد.. لقد وجدته الآن أمام باب بيتنا، يبدو أن الآلهة هى التى أرسلته إلينا لأنها تعلم كم أنت طيبة وحنون، إنه ابنك أنت يا «حنوت سن».. نعم، ابننا الذى أرسلته لنا الآلهة ليؤنس وحدتنا، ويملأ بيتنا بالبهجة والسرور .. كم هى طيبة وكريمة تلك الآلهة!

استيقظت كل حواسها الآن، عندما سمعت كلمة «ابنك ياحنوت سن» لم تتمالك نفسها فاغرورقت عيناها، وراحت تتأمل وجهه البرىء، وتتمعن فى قسماته الجميلة مالت عليه وطبعت على جبينه قبلة طويلة ضمنتها كل

Looloo
www.dvd4arab.com

مخزون الحنان بين جوانحها .

والمحبوس منذ سنوات بلا طفل يحرك فيها مشاعر الأمومة.. نظرت إلى زوجها بعينين تترقرق فيهما دموع صافية وسألته كأنها تحدث نفسها..

– أفى حلم أنا يا «مرى».. ؟! أم هى الحقيقة..؟

وأمام بكاء الرضيع المتواصل لم تشعر بنفسها إلا وهى تخرج ثديها وتضعه فى فمه فالتقمه بنهم الجائع وراح يمتصه وقد كف عن البكاء.. شعرت المرأة الشابة بشعور غريب أكد لها أنها ليست فى حلم وأن ما يحدث ليس وهماً، بل حقيقة ملموسة.

جلس «مرى إن بتاح» سعيداً يتأمل زوجته المحبوبة وهى تداعب الطفل وتناغيه وبلا شعور منه راحت يده تعبث بلفة الملابس التى وجدها بجانب الطفل، وإذا بصوت رنين بين الملابس، أمعن النظر وفتش الصرة، ففوجىء ببعض القطع الذهبية تلمع بين يديه، صاح بزوجته..

– انظرى يا «حنوت – سن» ماذا وجدت أيضاً..؟ إنها قطع ذهبية .. إنها ثروة.. ألم أقل لك إنه هبة من عند الآلهة..

لم تأبه «حنوت – سن» بما وجد مرى، كانت قد انحنت على الطفل لا تكف عن تأمل وجهه تلثمه وتضع خدها على خده، وتتحسس بشرته الناعمة، ثم تعود تقبل فمه وجبينه، ولما عاود البكاء، رفعت رأسها فجأة وقالت..

– «مرى» .. إنه جائع .. وليس فى ثديى لبن.. ماذا سنطعمه؟

أسقط فى يده، فهو لا يعلم ماذا يأكل الصغار فى هذا السن، ونسى فرحته بما وجد وأخذ يفكر «ماذا يفعل؟».. انتشلته «حنوت – سن» من دوامة التفكير صائحة بفرح..

– آه .. تذكرت.. أليس لدينا عنزة ترْضع؟ اذهب واحلبها الآن وهات بعضاً من لبنها، إنه خير غذاء للرضع.

أسرع «مرى إن بتاح» إلى الفناء حيث عنزته الوحيدة ممددة وحولها

بعض الدجاج، هش الدجاج واقعى على ركبتيه وبيده إناء فخارى صغير، وأخذ يحلب فيه اللبن حتى ملأه وأسرع به إلى زوجته، تناولته وراحت تسقى الرضيع بملعقة خشبية صغيرة وهى تغنى له، بينما عاد «مرى» يحكى لها عما وجد فى لفة الملابس من قطع ذهبية كثيرة جعلتهما أغنياء منذ الليلة وأنهما يجب أن يشتريا بيتاً فى حى أفضل من هذا الحى الفقير الملىء بالذباب والقاذورات، حياً يليق بهذا الطفل الجميل الذى وهبتهما الآلهة، وأطلقا عليه اسم «إيب خنسو».

كانت هناك أربعة عيون لشبحين يراقبان ما يحدث، وعند هذا الحد من الأحداث، وقبل أن يبدأ إله الشمس فى نشر أشعته الذهبية على المدينة البيضاء، التقت العيون الأربعة وشبح ابتسامة رضى على وجهيهما، واتخذ الشبحان طريقهما إلى شاطىء النهر حيث قاربهما المربوط بجذع شجرة، وبعد قليل كان القارب يمخر عباب النهر بنعومة وهدوء تاركاً خلفه ذلك الحى الفقير، فى طريقه إلى حى الأثرياء شرق المدينة، تمتم أحدهما قائلاً:

– لقد أحسنت الاختيار يا «منتو».. سيكون الطفل بأمان هناك..

استغرقت ترجمة هذا الجزء وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً بسبب سوء حالة البردية وخاصة فى نهايته، ولم أشأ أن أضيف شيئاً من عندى، ويبدو أن هذا الجزء كان يحوى بعض التفاصيل عن حياة الطفل والتى تدور فى الغالب عن انتقال «مرى– إن – بتاح» وزوجته «حنوت – سن» من الحى الذى كانا يقيمان به إلى حى أكثر نظافة ورقياً، وعن الترقيات التى لم يكن الرجل نفسه يتوقعها، حتى أصبح كاتباً عاماً لمخازن الحبوب الملكية، وهى على العموم تفاصيل غير جوهرية فى صلب القصة، ومن حسن الحظ أن الجزء التالى كان بحالة جيدة إلى حد كبير..

(٤) الأصدقاء الثلاثة

جلس الأولاد الثلاثة «با – حور» ابن الجندى الذى مات فى الحرب

Looloo
www.dvd4arab.com

ضد الأعداء فى الجنوب، و«جسر» ابن المزارع الطيب «كابتاح»، و«إيب - خنسو» ابن الموظف المحترم «مرى إن بتاح» الذى أصبح كاتباً فى مخازن الحبوب الملكية، جلسوا كعادتهم فى مكانهم المفضل على شاطىء النهر تحت ظل شجرة الصفصاف يتبادلون الحديث بعد أن تعبوا من الركض واللعب طوال الظهيرة.. أمسك «با -حور» بغصن طويل جاف واستل سكيناً يحتفظ به دائما فى حزامه وأخذ يهذبه ليجعل منه رمحاً كما يقول، وبينما هو منهمك فى عمله اقترح على صاحبيه أن يخرجوا فى الغد إلى الصحراء ليقضوا يومهم هناك يلعبون ويصطادون الحيوانات الصغيرة والطيور.. أسرع جسر بالموافقة على الفكرة، وتباطأ «إيب - خنسو» فى الرد، ولما استحثه «با-حور»، وافق بشرط أن يستأذن والديه أولا.. علق «با-حور» قائلا..

- لقد كبرت يا «إيبو» وآن لك أن تتصرف كالرجال..

- وهل يجب أن يعصى الرجال آباءهم..؟

سرح «با-حور» فى الفضاء الممتد أمامه وقال:

- لا .. لو كان أبى حياً، ما عصيته أبداً..

اضاف محدثا نفسه «ولن تهدأ روحى حتى أثأر له بيدى هاتين..»

سادت فترة من الصمت احتراماً لمشاعر «با-حور» الذى لم يكن يترك فرصة ليؤكد أنه لن يترك ثأر أبيه وأنه لابد من أن ينتقم له، كان كلما تأمل تلك اللوحة التى تصور أربع سفن مشحونة بالأسرى الفينيقيين وحولهم البحارة المصريون، تنقبض ملامح وجهه، ويخرج الشرر من عينيه، ويظل يتفرس فى وجوه البحارة عله يلمح والده بينهم، يجز على أسنانه ويقول فى نفسه «لتهدأ روحك يا أبى فقد حققت النصر، لكنى لن أترك هؤلاء الخنازير حتى أبيدهم جميعا..» كان هذا هو هدف حياته الأول.. أن ينتقم لأبيه، ولذلك فقد رسم لنفسه طريقه منذ البداية، سيكون ضابطا فى الجيش، فحرص على تعلم القراءة والكتابة مع صديقيه فى المعبد حتى يبلغ سن الإلتحاق بالجيش،، وعبثا حاول «ايب-خنسو» مراراً أن يثنيه عن

عزمه ليكون كاهناً مثله ومثل جسر، لكن دون جدوى، بل إنه كان يقابل تلك الفكرة أحياناً بالسخرية قائلا إن هذا ليس عملا حقيقياً، فالعمل الحقيقى فى نظره هو الذى يمارسه الإنسان بيديه..

وفى الحقيقة كان الولد مهيئاً لهذا العمل الذى اختاره فقد كان معتدل القوام، فارع الجسد، قوى البنية، مفتول العضلات، واسع الصدر، عريض الكتفين بحيث إذا تأملته لا يمكن أن تتخيله غير جندى..

أما «جسر» و«ايب-خنسو» فقد اختارا الكهنوت طريقاً لهما، ولما كانت عبادة الشمس قد انتشرت وأخذ نجم الإله رع فى الصعود فضلا أن يلتحقا بمعبد الإله رع، وحسب النظام المتبع تبدأ الدراسة بتعلم القراءة والكتابة أولا ثم تبدأ بعد ذلك مرحلة التعليم الدينى وتدريس الطقوس والفلسفة والفلك والحساب وغيرها..

ورغم الاختلاف الواضح بين طبائع الأولاد وظروف نشأتهم إلا أن حبل الصداقة الذى جمعهم كان قوياً متيناً، ولا يتأثر بتلك المشاحنات التى تنشب بينهم فى بعض الأحيان، وخاصة بين الإثنين معا وبين «با-حور» حيث أنه كان حاد المزاج، سريع الانفعال، معتزاً بشخصيته، مؤمناً بنفسه وقدراته إلى حد بعيد، لكن لا يستطيع أحد أن يدعى أنه لم يكن طيب القلب، نقى السريرة، سليم الطوية، فقد كان إذا دار الحديث عن الآلهة والإيمان والعقيدة، لا يشارك فيه، فإذا ما استفزه أحد - وكان هذا الأحد بالتحديد هو «جسر» غالباً - ثار وهاج وصرخ فيهم..

- أيها الحمقى.. إنكم تضيّعون حياتكم سدى.. ليست الآلهة إلا لعبة فى يد الكهنة يسلبون بها أقوات الناس، ويتحكمون بها فى رقابهم..

ويتضاحك الرفاق، فتهدأ ثورته على الفور، ينظر إلى «جسر» بغضب مصطنع ويقول له مهدداً: «سوف أضطر إلى قتلك يوماً.. أيها الخبيث..» ويزداد الضحك والبهجة حتى يتفرقون فى النهاية كلٌ إلى بيته..

ونهضوا ليذهب كلٌ إلى بيته فقد أزف الوقت، وبدأت الشمس تميل نحو الغروب، «با-حور» وقد انتهى من إعداد رمحه استوقفهم حتى يجربه،

www.dvd4arab.com

أمسك به من وسطه وشد قبضته عليه، وأخذ عدة خطوات للخلف، ثنى جذعه للوراء ثم استجمع قوته وأطلقه فى اتجاه شجرة الصفصاف فاستقر الرمح فى جذعها، صفق الصديقان لبراعته الفائقة، سار بفخر إلى الشجرة ونزعه وعاد به وهو سعيد، علق جسر قائلا هكذا يمكننا أن نصطاد أسداً فى الغد..

نظر إليه باحور باحثاً عن أى آثار للسخرية فى وجهه فلم يجد، أيقن أنه جاد فاطمأن ورضى، وواصلوا مسيرهم إلى منازلهم..

فى اليوم التالى، وفى الصباح الباكر، قبل أن تشتد حرارة الشمس، حملوا ما يحتاجون إليه من متاع وطعام واتخذوا طريقهم إلى مشارف المدينة قاصدين الصحراء، داعبت نسمات الصباح الرطبة وجوههم فبعثت فى نفوسهم النشاط والحيوية والأمل فى قضاء يوم ممتع، وأسرعت حركتهم أكثر، وفى الطريق اعترض طريقهم ضابط كبير الشأن كما يبدو من هيئته، أطال «با-حور» النظر إليه معجباً بملابسه والقلادة الذهبية التى تزين صدره وهو يحلم باليوم الذى يرتدى فيه هذا الزى ويتزين صدره بالنياشين والأوسمة.. استوقفهم الضابط سائلا إياهم عن وجهتهم، توقف الركب الصغير.. وتصدى «با-حور» للرد قائلا بشجاعة وهو يشدد قبضته على رمحه ويرفعه بيده..

– نحن ذاهبون إلى الصحراء لنقضى اليوم هناك فى الصيد والقنص..

أجال الضابط النظر فيهم واستقرت نظراته أكثر على «إيب-خنسو»، سألهم..

– ذاهبون إلى الصحراء!؟ وحدكم؟ ألا تخافون الوحوش؟

رد «با-حور» بسرعة..

– لا .. نحن لا نخاف.. إن معى رمحى، ومعى سكين أيضاً..

وجّه الضابط سؤاله إلى «إيب-خنسو»..

– وأنت أيها الشاب، ماذا معك لتحمى به نفسك..؟

أشار «ايب-خنسو» إلى قلبه قائلا..

– معى هذا .. قلبى العامر بالإيمان..

كادت ضحكة أن تفلت من «با-حور»، لكنه كتمها فقد رأى أن الضحك فى مثل هذا الموقف غير مناسب على الإطلاق، لكنه لم يسكت ورد على الضابط قائلا..

– أنا أحميه بحياتى ياسيدى..

قال «با-حور» (سيدى) بطريقة – تشبه طريقة الجنود فى الرد على من هم أعلى منهم رتبة – جعلت الضابط يتبسم رغماً عنه، تنحى عن طريقهم ليواصلوا سيرهم، وظل يتابعهم بنظراته لمسافة طويلة ثم تبعهم دون أن يشعروا..

وكان بالفعل يوماً ممتعاً، قضوا وقتهم منذ الصباح فى الركض واللعب، وأظهر «با-حور» الكثير من مهاراته فى القفز من التلال المرتفعة، والزحف على الرمال والاستخفاء، وتقليد أصوات الحيوانات لدرجة أفزعت «جسر» عندما اختفى عن الأنظار وأخذ يقلد صوت الذئب وحسبه «جسر» ذئباً حقيقياً، ومضى الوقت الجميل سريعاً، وانقضت الظهيرة، وشعروا بالجوع، فجلسوا يتناولون طعامهم وهم يتضاحكون، ويتخاطفون الطعام من بعضهم، وبينما هم فى لهوهم إذا بشئ يمرق بالقرب منهم، كان أول من لمحه جسر، قال بفزع..

– يبدو أنه ذئب..

قال «إيب-خنسو» محاولاً طمأنته..

– لا.. لا.. هذا ليس ذئبا.. يبدو أنه ظبى صغير..

انفرجت أسارير «با-حور» وقال بفرح..

– إن كان ظبياً.. فأبشروا بأكلة دسمة..

نظر إليه صاحباه بدهشة وفى صوت واحد قالا..

– ماذا تعنى..؟

– ليس عليكما إلا المساعدة، سأطارده من هذه الجهة، وما عليكما إلا

Looloo
www.dvd4arab.com

الصياح إن جاء من ناحيتكما..

وانطلق خلف الظبى رافعاً رمحه بيد والأخرى سكينه، ومر الوقت وهم فى طراد عنيف، يظهر «با-حور» لصاحبيه لحظة خاطفة ثم يختفى، وأخيراً شاهد الشابان باحور ينقض على الظبى كالأسد ويقبض عليه بكلتا يديه، حاول الظبى أن يتخلص من الذراعين القويين دون جدوى.. صرخ «با-حور» فى صاحبيه..

- ليعطنى أحدكما حبلاً..

أسرع «جسر» إلى حقيبة المتاع فأخرج حبلاً ناوله إياه وابتعد، وراح «با-حور» يقيد الظبى الذى استسلم تماماً، وصاح..

- ها قد ربطته، اقتربا ولا تخافا، إنه لايعض..

واقترب «جسر» و«إيب-خنسو» منه وهما لا يدريان ماينوى فعله، كان الظبى ينزف من أثر ضربة أو ضربتين من رمح «با-حور» الذى ألقاه على جانبه وأمسك بسكينة وبدأ يذبحه، وما أن شاهد «إيب-خنسو» منظر الظبى والدم يندفع من رقبته حتى دارت به الأرض وسقط طريحاً، توقفت يد «با-حور» حين سمع صرخة جسر..

- إيبووووو

ترك «با-حور» ما بيده وخف إلى الطريح وهزه بعنف، أسرع إلى حقيبة المتاع واختطف قربة الماء، وأخذ يرش وجه الشاب ويناديه بصوت عال، وما من مجيب، ظهر الخوف والفزع وهما لا يدريان ماذا يفعلان، همس «جسر» متسائلا..

- هل مات؟ هل مات يا «با-حور»..؟

نهره «با-حور» وأمره بالسكوت فسكت وجلس على الأرض يندب صديقه دون أن يخرج صوته من حلقه، أقعى باحور بجانبه وألصق أذنه بصدره، شعر بتنفسه بطيئاً فاطمأن قليلاً وقبل أن يرفع رأسه أحس بظل طويل أمامه، رفع رأسه ليجد الضابط الذى اعترض طريقهم فى الصباح..

Looloo
www.dvd4arab.com

– ماذا حدث؟

تساءل الضابط وهو يزيح «با–حور» عن صدر الشاب ويجس نبضه، أدرك أنه مجرد إغماء بسيط وأخذ يدلك له صدره ففتح عينيه، وبدأ فى النهوض، وهنا عادت الدماء تجرى فى وجوه صديقيه، وتهللت أساريرهما، انكب «جسر» على يد الضابط يقبلها شاكراً، وانحنى «با–حور» له ممتناً..

تهيئوا للعودة جميعاً، وحرص الضابط على ألا تقع عين «إيب– خنسو» على الظبى المذبوح، سار الضابط معهم حتى اقتربوا من المدينة مع غروب الشمس، شمل «إيب– خنسو» بنظرة أخيرة قبل أن يفارقهم ثم اتخذ طريقه بعد أن ودعهم، تبعه «با–حور» عدة خطوات وناداه..

– سيدى الضابط العظيم.. ما اسمك يا سيدى..؟

– اسمى.. اسمى «منتو».

يوم الوداع

جاء اليوم الذى يجب أن يدخل فيه «إيب– خنسو» المعبد بعد أن اكتمل عامه الثانى عشر، وبهذا تكون الليلة هى آخر لياليه بين أحضان أبويه، ولمدة عام كامل لن يعود إلى البيت أو الحى، «حنوت–سن» تتبعته بنظراتها والدموع تترقرق فيهما، لكنها تحاول اخفائها ما استطاعت، والمشاعر تختلط بداخلها ما بين الحزن لبعده والحرص على مستقبله، والرغبة فى أن يعلو شأنه وتسمو مكانته، لكنها كلما تذكرت أن البيت سيخلو من حركته وعبثه وضحكاته وضجته، أحست بالألم يعتصر قلبها، ولاتستطيع أن تحجب دموعها، و«مرى إن بتاح» يراقبها وهو صامت ولا يجد الفرصة للكلام ليزيح عن صدره الهم الثقيل الذى يرزح فوقه..

تنهدت «حنوت–سن» وهى تتساءل..

– ألن نراه حقاً طوال العام..؟

أسرع مرى بالرد، وكأنه وجد طوق نجاة..

– لا.. يا «حنوت–سن».. سترينه بالتأكيد، سوف آخذك معى إلى المعبد كل أسبوع لنزوره هناك، فهذا مسموح به، فيما عدا الشهور الثلاثة الأولى فقط بعدها يمكننا أن نزوره كلما شئنا.. أليس الأمر كذلك يا «إيب.. خنسو»..؟

لم يكن «إيب–خنسو» متابعاً للحديث، يبدو أن مشاعره هو الآخر كانت مضطربة ومتضاربة ما بين فرحته بقرب تحقيق أمله، وما بين فراق والديه وأصحابه، ولما لم يرد اضطر والده أن يعيد عليه السؤال، أجاب بالإيجاب وهو شبه غائب عما حوله، أطال النظر إلى أمه ثم اندفع إلى حضنها، تلقته بين ذراعيها وانهالت دموعها حتى بللت وجهه، مسح «مرى» دمعة غافلته، ثم تحامل على نفسه وخرج إلى الشرفة وجلس يحدق فى اللاشئ..

كان قرص الشمس قد بدأ يميل نحو الغروب استعداداً لرحلته الليلية خلال العالم السفلى، و«مرى» يتابعه ويتأمل بعض السحب الداكنة التى تحوطه وتتشكل بأشكال مختلفة، فهى تارة تأخذ شكل الجمل، وتارة تأخذ شكل طائر ضخم، وتارة بلا شكل معروف، راح يستعرض أيام عمره التى خلت، ويفتش فيها عن السعيد والتعيس، فلا يجد أسعد من ذلك اليوم الذى وجد فيه الطفل فى السفط المجدول من سعف النخيل وكلما تخيل حياته وحنوت سن بدون هذا الولد لا يجد لها أى معنى، وتأكد لديه أنه لا يمكن أن يكون غير هدية وهبة من الآلهة الطيبة.. لم يشعر بالوقت الذى مر إذ فوجئ بيد تربت على كتفه برفق، تنبه ليجد أمامه «حنوت–سن» و«إيب خنسو» يطلبان منه أن يعود للداخل بعد أن حل الليل وبدأت البرودة تسرى فى الهواء، نهض بوهن انزعجت له «حنوت–سن»، فسألته بحنان..

– ما بك يا «مرى»..؟ هل أنت مريض..؟

لم يشأ «مرى» أن يبعث فى الجو كآبة أكثر من ذلك، فتصنع الغضب

www.dvd4arab.com

قائلا..

– مريض!؟ أنا..؟ لا.. لست مريضاً يا امرأة.. إن أمامى أكثر من عشرين سنة أعيشها، فهل ستبقين معى أم.....؟

– أم ماذا يا رجل؟ هل جننت؟ أتريد أن تتزوج بعد هذا العمر الطويل؟

– ومن ذكر الزواج يا امرأة؟ إنى أقصد.. أقصد زواج «إيب–خنسو».. لا زواجى أنا.. إلا إذا رغبت أنت فى ذلك، أنا أحذرك، إن تركتنى وحدى فسأضطر إلى ذلك رغماً عنى..

– سأكون سعيدة جداً بذلك يا «مرى».. هذا إن وجدت من ترضى بك زوجاً.. تعالت ضحكات «إيب–خنسو» كعادته كلما ثارت هذه الزوابع اللطيفة بين العجوزين فبعثت فى جو البيت شيئاً من المرح الذى غاب عنه منذ عدة أيام بسبب قرب رحيل «إيب–خنسو»، وبينما هم على هذه الحال، دخلت «حنوت– سن» لتعد طعام العشاء «أفضل من اللغو مع عجوز» كما قالت قبل أن تدخل سمعوا طرقاً على الباب، فاتجه «إيب–خنسو» إليه مسرعاً وهو يقول..

– لابد أنه «با–حور».. أعرف أنه هو..

ودخل «با–حور» وهو يزيح «إيب–خنسو» من طريقه، ويكمل كلامه..

– آه.. ألم أقل لكم.. لاشك أنه اشتم رائحة الطعام، فجاء على الفور، زاعماً أنه جاء يودعنى، أليس كذلك أيها الضابط العظيم..؟

– لا.. ليس كذلك أيها الكاهن الصغير، لقد جئت لأودع الأم الطيبة «حنوت–سن» والأب العزيز قبل أن أذهب إلى التدريب العسكرى فى فرقة الحرس الملكى تحت قيادة الضابط «منتو» أنت تعرفه، ألا تذكره، ذلك الضابط الذى..

– آه.. أذكره، أذكره، لكن فرقة الحرس الملكى!؟ ظننتك ستلتحق بفرقة من فرق المعابد الكبيرة أو فرقة بيت المال أو فرق الأقاليم..

عادت «حنوت–سن» بالطعام، حياها «با–حور» بلطف كعادته، ردت

تحيته بامتنان وسعادة وعلق «إيب–خنسو».

– يا أمى.. إنه يقدم التحية للطعام، لا «لحنوت–سن»، الأم الطيبة..

تدخل الأب حتى لا يمتد الجدال وتطول المشاكسة بين الشابين، وإن كان يحب ذلك ويعتبرها دليلاً على متانة العلاقة بينهما، لكن الليلة لها ظروف مختلفة، فهو سيحرم من تلك المشاكسات لمدة طويلة، وأسرع إلى الطعام داعياً الجميع إليه..

انتهوا من تناول العشاء بسرعة، ولم يكن أحد منهم جاداً فى الأكل، فالمشاعر متأججة، وكل يحاول اخفاءها عن الآخر، وأخيراً حانت ساعة الفراق بين الصديقين ونهض «با–حور» لينصرف، سلم على «حنوت–سن» وقبّل يدها فقبلت رأسه وهى لا تفتر عن الدعاء له ولولدها، وسلم على «مرى» وعانقه، ثم تقدم ناحية «إيب–خنسو» الذى تقدم هو الآخر والتقيا فى عناق طويل وجسدهما يهتزان من شدة التأثر مما دفع بالدموع إلى عينى العجوزين، وانطلق «با–حور» للخارج وهو يمسح دمعة فرت من عينيه..

فى المعبد

كانت الأيام الأولى «لإيب–خنسو» فى المعبد شديدة القسوة على نفسه، بدأت بالاغتسال وقص الشعر والصيام، وارتداء الخشن من الثياب، وقلة عدد ساعات النوم، لمدة أسبوع كامل.. ولم يكن يهون عليه الأمر قليلاً إلا وجود «جسر» معه فى نفس المكان، وإن كان انفرادهما ببعض قليلاً بسبب الواجبات الثقيلة التى تفرض على الجميع من غسل ومسح أرضيات الحجرات الداخلية الخاصة بكبار الكهنة، وكذلك قدس الأقداس ومكتبة المعبد، أو الواجبات المفروضة عليهم فى تعلم القراءة والكتابة ونسخ العديد من أوراق البردى، أو حفظ الأناشيد والتراتيل والأدعية وغيرها، وقد تحمل

www.dvd4arab.com

الشابان هذه الفترة بصبر وجلد حتى انتهت على خير وجه..

بعد ذلك أخذت بقية الأيام حكم العادة فلم تعد هناك معاناة غير بُعد الأهل والصحاب، وغياب «با-حور» عنهما، وبدأ «إيب-خنسو» و«جسر» الدراسة الجادة للكهنوت ولقى هذا النوع من الدراسة هوى فى نفس «إيب-خنسو» أكثر من صديقه وبقية رفاقه، واستهوته تلك النصوص التى تتحدث عن كيفية خلق العالم وعن الآلهة المختلفة والعالم الآخر والثواب والعقاب ومحاكمات الموتى، فكان كثير الأسئلة والاستفسار حتى أن بعض الكهنة كان يضيق به وخاصة الكاهن «كا-رع» الذى كان ينهره فى بعض الأحيان ويصفه بالغبى..

ومضت الأيام على وتيرة واحدة، ليس هناك جديد إلا القليل النادر من الأحداث والأخبار التى تتناثر هنا وهناك بين الصغار عما يحدث فى القصر من قلق واضطرابات وما آلت إليه أحوال البلاد من ضعف وتفكك وهو ما لم يكن «إيب-خنسو» يتوقف عنده كثيراً ولا يلق إليه بالاً فقد استغرقته الدراسة وسيطرت عليه أفكار جديدة وتغير حاله بشكل ظاهر وقد لاحظ «جسر» هذا التغير فأرجعه إلى إحساسه بالوحدة وبعده عن أبويه، كما لاحظت «حنوت-سن» ذلك أيضاً فى زياراتهما له وهالها ما وجدته عليه من ضعف وهزال، فكانت تحرص كلما زارته على تزويده بطعامها الذى تعوّد عليه.

كان «إيب-خنسو» كلما وضع رأسه على وسادته ليلاً بعد يوم عمل شاق، لا يأتيه النوم مباشرة كما يحدث مع زملائه فى تلك الحجرة الرطبة، فيظل ساهراً وعينيه معلقتان بالسقف، يصل إلى سمعه صوت غطيط الرفاق من حوله، وأزيز الحشرات خارج الحجرة، وطنين فى رأسه تسببه تلك الأفكار والتصورات الغريبة عن العالم والآلهة، والبعث والحساب، ويقارن ما بين ما يراه وبين ما يدرسه، فيجد الفروق كثيرة وواضحة، ثمة خطأ هناك ولكن أين، لا يدرى.. لماذا يغضب الكهنة كلما سأل عن

طبيعة الإله، لماذا يصرون على أن يصبّوا فى رؤوسنا تعاليم جامدة لا تقبل الجدل، كيف يمكن للإنسان أن يكون ظالماً ولا يحاسب لمجرد وضع نصوص خاصة فى تابوته، هل هذا هو عدل الآلهة ؟! ما هى الحقيقة إذن..؟ من ر ع ؟ ومن بتاح ؟ وعند هذا الحد كان يتوقف خشية الوقوع فى الخطيئة فينقلب على جانبه الآخر ويحاول أن يغمض عينيه وينام لكن دون جدوى، انتابه شعور بالسأم وكراهية الحياة وعدم جدواها وظل على هذه الحال حتى ذلك اليوم الذى كلف فيه بتنظيف مكتبة المبعد، وهناك بدأت الأمور تتغير بعض الشىء، رأى أشياء بدت له كأنها بصيص نور يضىء فى الأفق البعيد، كانت المكتبة تقع فى أقصى المبنى بالقرب من قدس الأقداس، ولم يكن الدخول إليها متاحاً لأى زائر ولا حتى لأى كاهن، وذات يوم، كان «إيب - خنسو» ضمن تلاميذ ثلاثة كلفوا بتنظيف المكتبة تحت إشراف أحد الكهنة، وما إن ولجوا من الباب حتى قابلتهم رائحة عطنة حيث أنها قلما تفتح وهى عبارة عن حجرة كبيرة مستطيلة الشكل بنيت حوائطها على هيئة رفوف وخزائن بعضها مغلق بأبواب خشبية، وليس لها نوافذ لكنها تستمد ضوءها الضعيف من خلال كوى صغيرة بأعلى الحائط، ورصت لفائف البردى داخل الرفوف بلا ترتيب ولا تنسيق وتراكم عليها الغبار حتى كاد يغطيها تماما، استرعى المكان انتباه «إيب - خنسو» وأثار فضوله إلى حد كبير، ولفت نظره أكثر تشديد الكاهن عليهم بألا ينظر أحد فى الأوراق، ودهش التلاميذ لهذا التحذير وإن كان كل همهم الإنتهاء من العمل فى هذا المكان المقبض إلا أن «إيب - خنسو» شذ عن رفاقه فصمم على أن يستجلى الأمر وانتهز غفلة من الكاهن وفتح إحدى اللفائف وبسرعة طالع بعض سطورها المكتوبة بالخط الكهنوتى، وخيل إليه فى تلك اللحظة أنه وجد ما كان يبحث عنه وأنه يمكن أن يجد فى هذه المكتبة إجابة لكل تساؤلاته وما يشغل باله ويسكن قلقه، لكن أنى له ذلك، لن يرضى أحد أن يعطيه الفرصة، وما من سبيل غير الحيلة..

www.dvd4arab.com

فى الليل باح لجسر بما يدور فى خلده ، وكانت دهشته بالغة حين استهان جسر بالأمر وأكد له بأن هذا أمر سهل ، أحس بأنه يعيش فى المكان ولا يعرف ما يدور حوله ، سأل جسر بلهفة ..

– كيف .. كيف يكون هذا أمر سهل ؟ لو رأيت مدى خوف الكاهن من أن تلتقط أعيننا كلمة من هذه الأوراق ، ما قلت هذا الكلام ..

قال «جسر» بثقة ..

– دع الأمر لى ، وأنا سوف أجد طريقة تمكنك مما تريد ، لكن ما أهمية هذه الأوراق لك ؟ ألا يكفيك ما نكلف به من واجبات ؟

– لا تسألنى الآن عن شىء .. فأنا لا أعرف بعد ما أريد .. لكننى أثق فى أن هذه الكتب ستفتح لى آفاقاً بعيدة للمعرفة .. هل ستساعدنى حقا ؟

– بالطبع يا صديقى .. أمهلنى فقط عدة أيام ..

وبر «جسر» بوعده بعد عدة أيام إذ فوجىء «إيب – خنسو» بالكاهن نفسه يطلب منه تنظيف المكتبة ، وغمز له أن يفعل ذلك دون أن يراه أحد وحدد له الموعد فى وقت راحة الكهنة ، سُر «إيب – خنسو» كثيراً وانكب على الكتب ينهل منها ما استطاع وعلى قدر الوقت المسموح له به ..

عندما دخل المعبد للمرة الأولى ، كان متحمساً ومتلهفاً على العلم والمعرفة ، ولما عاش حياة المعبد أحس بالإحباط وخيبة الأمل ، لم يكن هذا ما تصوره عن الكهنوت والحياة النقية الصافية ، ولما دخل المكتبة ، عاد إليه الأمل مرة أخرى ، واكتشف أن معظم هؤلاء الكهنة ما هم إلا أدوات ودمى فى أيدى الكبار ، يحركونهم لتحقيق مآربهم وأطماعهم ، وأنهم لا يبغون من الناس تقواهم وإيمانهم بقدر ما يبغون أموالهم ومتاعهم ، وأنهم يرهبونهم أكثر مما يرغبونهم ، فلماذا يحدث هذا ؟ ما هى الحقيقة ؟

كان يظن أنه بقراءة هذه الكتب سوف يحقق لنفسه الهدوء والسكينة ، فلم تزده غير القلق والحيرة ، وأصبح يغرق بالساعات فى التأمل ويشرد فكره فلا يكاد يدرى ما يدور من حوله حتى جاء ذلك اليوم الذى كان

Looloo
www.dvd4arab.com

يتمشى فيه داخل فناء الأعمدة ينظر إلى نقوش الحائط ولا يراها وإذا بصوت رقيق يسأله عن رسم يصور حيواناً برأس يشبه رأس ابن آوى يفترس آدميا فرد دون أن ينظر إلى السائل ..

– هذه «سخمت» ، تفترس الأرواح الشريرة بعد ..

وهنا التقت العيون فسكتت الشفاه ، هو باغتته المفاجأة فراح يتأمل وجهها بجرأة غير مألوفة لديه ، شجعه عليها إحساسه بأنه لم ير جمالاً هادئاً بهذا الوصف من قبل ، ويقينه بأن هذه الفتاة لن تمر بحياته مر السحاب .. خُيل إليه أن كل من بالمعبد يسمع دقات قلبه ، أفاق على صوتها يغرد سائلا ..

– ما اسمك أيها الكاهن ؟

– اسـ .. اسمى .. «إيب – خنسو» .

أصبح للحياة مذاق آخر ، أحس بأنه كان يعيش بلا قلب ولاإحساس ، «هل هذا هو الحب ؟ «سأل نفسه وأجاب .. «لابد أنه هو» ولكن من هذه الفتاة ؟ لماذا تظهر فى حياتى هذه الأيام بالذات ؟ ربما أرسلتها الآلهة كنسمة رطبة لروحى المجدبة ربما .. وربما تكون مصدراً آخر لعذابى .. ربما .. من يدرى ..

وتعددت بعد ذلك لقاءات الشاب والفتاة ، وباح لها بمكنون قلبه وباحت له، اعترفت له أنها كانت تراقبه منذ مدة طويلة واعتذر لها بأنه كان مشغولاً فلم يلاحظ شيئا مما حوله ، وعبّر لها عن ندمه لضياع هذه الأيام من عمره .. وذات مرة سألها عرضا عن سبب حضورها للمعبد ، ردت ببساطة..

– إن أبى كاهن فى هذا المعبد ..

– أحقا .. من هو ؟

– الكاهن «كا – رع» .

أسقط فى يده وظهرت خيبة أمله على وجهه ، أحس بأن الدنيا لا تقبل

عليه شبراً إلا لتدبر عنه ذراعا ، لاحظت الفتاة تغير حاله فسألته ..

– ما بك يا «إيب – خنسو» ، هل يغضبك أن يكون أبى كاهنا ؟

– لا .. ما يخيفنى أن يكون هو الكاهن «كا – رع» ..

– ماذا تعنى ؟

– إن الكاهن «كا – رع» لا يحبنى ، أقصد .. لن يسعده أن .... إنه يرانى غير أهل للكهانة ، فكيف يرانى زوجاً لابنته..

(٧) جراح قلب

اليوم أعلن فى الحى نبأ زواج الشاب «جسر كابتاح» والفتاة الجميلة «ميريت» ابنة الكاهن «كا – رع» ..

ولم يفاجأ «إيب – خنسو» عندما سمع الخبر ، لكنه شعر أن جبلا من الصخر هوى فى صدره وجثم على قلبه فاسودت الدنيا فى عينيه ووقف صامتا لا يدرى ماذا يفعل ، ترك نفسه تماما لهواجسه وأفكاره .. وتساءل فى دهشة .. «لماذا؟» .

لقد كان يحب ميريت حبا صادقا ملك عليه دنياه .. وكان واثقا من حبها له .. لكنه أيضا كان واثقا من رأى أبيها الكاهن «كارع» الذى لم يكن يستريح له كثيرا .. ولا ينسى ذلك اليوم الذى نعته فيه باللحد عندما احتدت المناقشة بينهما حول طبيعة الإله .. يومها .. نعته باللحد ، وسدد عينيه فى وجه الشاب قائلا بحدة ..

– «إيب – خنسو» .. أنت لا مستقبل لك فى المعبد .. ويحسن بك أن تبحث لك عن عمل آخر ..

فهل كان يتوقع «إيب – خنسو» أن يوافق الكاهن على زواجه من ابنته؟ لم يكن هذا ممكنا بأى حال من الأحوال ... ولكن «ميريت» نفسها.. التى تحبه أكثر من أى شىء فى الوجود كما كانت تقول له .. كيف ترضى بغيره .. كيف ترضى أن تمنح نفسها لشخص آخر .. ومن هو .. ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

«جسر» !؟ صديقه منذ الطفولة ورفيق صبيان حتى هذا اليوم .. فى الشارع طفلان يلهوان معا .. وفى المعبد صبيان يتعلمان معا القراءة والكتابة ، وداخل المعبد يتلقيان أولى دروسهما فى عالم الكهنة .. «جسر»!! لماذا «جس» بالذات ؟ «هل يعنى الكاهن أن يجعل فشلى ماثلا أمامى طوال الوقت؟ لكن «جسر» – وأنا على يقين من هذا – لا يعرف ما بينى وبين «ميريت» .. كم يتفنن الرجل فى تعذيبى» .

أحس الشاب ببرودة تسرى فى جسده ، ورعشة تجتاح كيانه ، وأخذ يسير مهرولا على غير هدى .. لابد له من أن يتحرك حتى لا يسقط ميتا ، لم يعد يطيق الضجة التى تثيرها أصوات الباعة من حوله ، ولا صراخ الصبية الذين يتراكضون بجواره ، كان يريد أن ينفرد بنفسه ، لن يسمح لأحد بأن يعزيه أو يسرى عنه ، فلا أحد يعلم كم يعذبه أن يسمع كلمات عزاء بلا معنى، تمتم بصوت غير مسموع ..

– أين أنت اليوم يا با – حور .. آه لو تعلم كم أحتاج إليك الآن ..

أسرعت خطواته أكثر من ذى قبل – كان كمن يفر من خطر يلاحقه من خلفه – حتى أنه كاد أن يصطدم بامرأة ترتدى ثوباً أسود يغطى جسدها كله تقريباً فيما عدا نصف وجهها العلوى الذى برزت منه عينان سوداوان واسعتان ، ازداد اتساعهما عندما أبصرت الشاب المندفع ، بدا أنها تعرفه ، أما هو فلم يلتفت إليها .. بعد أن تجاوزها الشاب ظلت واقفة فيما يشبه الذهول تتابعه للحظات ثم انطلقت فى أثره ، بعد أن غطت ما هو ظاهر من وجهها أما هو فلم يعد يمكنه أن يواصل المسير .. فقد اعترضه النهر .. كيف وصل إلى هنا بهذه السرعة ؟ لا يدرى .. طاف بذهنه خاطر سريع .. لم لا يلقى بنفسه فى أحضان النهر ليستريح ؟ هو نفسه لا يدرى لم لمْ يفعل؟ أفاق على شخص يخاطبه بصوت عال ..

– هل تريد العبور يا سيدى؟

يبدو أن الرجل كان قد كررها من قبل أكثر من مرة ، لذلك فقد رفع صوته كثيرا حتى يسمعه الشاب الغارق فى تأملاته .. ودون أن يرد .. أو

يخرج صوته من حلقه أومأ موافقا وانحدر إلى القارب الذى كان يبعد خطوات قليلة عن الشاطىء .. خاض فى الوحل حتى استقر على ظهر القارب فيما كان النوتى يحل رباط قاربه بسرعة وفرح .. وانطلق يجدف بالشاب فى اتجاه الضفة الأخرى وهو يترنم بأغنية حزينة وجدت لها صدى فى نفس «إيب – خنسو» ، فانحدرت دمعة من عينيه ، سارع يمسحها بكفه وهو يدير رأسه جهة الغروب حتى لا يراه النوتى ..

كان قرص الشمس يتخلل كتلة من السحاب الداكن فتشتعل أطرافها بلون نارى .. تابع هذا المشهد حتى انسلخت الشمس من كتلة السحاب وتحررت منه تماما فأغمض عينيه ..

– سيدى .. سيدى .. لقد وصلنا ..

أفاق على صوت النوتى ، تأمل وجهه قليلا وسأله ..

– أيها النوتى الطيب .. لماذا قطعت أغنيتك ؟

– سيدى .. لقد انتهيت منها ولم أقطعها .. أنت الذى تبدو .. معذرة .. ليس لى الحق فى .. هل ستنزل يا سيدى .. أم تريد العودة ؟

نهض واقفا .. نقد النوتى قطعة فضية فتقبلها وقد تهللت أساريره وهو يتمتم بكلمات الشكر والدعاء .. قفز الشاب إلى الشاطىء ..

واتخذ طريقه صاعدا ، لكنه قبل أن ينطلق سمع صوت النوتى يناديه ثانية :

– سيدى .. سيدى .. لقد سقط منك هذا .. التفت الشاب وتأمل اليد الممدودة إليه بجعران صغير ، لكنه لم يتحرك فى اتجاه الرجل ، وخرج صوته بصعوبة ..

– احتفظ به أيها النوتى الطيب عله يجلب لك الحظ السعيد فهو لم ينفع معى..

استدار ومضى بخطى سريعة بينما كانت عينا النوتى تتابعه بدهشة وعجب..

امتد الفضاء أمامه بلا نهاية يحدها البصر ، على يساره ترتفع مقابر

Looloo
www.dvd4arab.com

الأجداد فى شموخ ، تنعكس أشعة الشمس على جدرانها المصقولة اللامعة فتبدو مضيئة .. فى المقبرة الكبيرة يستقر جسد الملك خوفو داخل تابوته الصخرى فى هدوء وسكينة .. وبجواره مقبرتى الملك «خا - إف رع» والملك «من - كاو - رع» وحولهم تتناثر مقابر الأشراف وكبار رجال الدولة وحكام الأقاليم ، كل هؤلاء الذين كانوا يملأون الدنيا حياة وحركة ، كلهم هنا الآن ، يرقدون فى صمت وسكون ، « عليك اللعنة أيها الكاهن «كارع» .. ماذا تريد من هذه الدنيا ؟ إنك لن تحصد منها إلا ما زرعت .. لماذا تزرع الشر ؟ ترى؟ ماذا تخبىء لى ولابنتك .. و«لجسر» وحتى للإله نفسه ؟ أحس أنه يدبر شيئا فى الخفاء .. لكن .. ما هو؟ لا يدرى ولا أحد يدرى .. عليك اللعنة مرة أخرى أيها الرجل» .

لم يتوقف عن المسير بالرغم من شعوره بالتعب والإرهاق ، ولم يفكر فيما يمكن أن يسببه غيابه لوالديه من قلق وعذاب .. لم يكن يفكر فى شىء على الإطلاق كان وجهها فقط هو الذى يتراءى له جميلا هادئاً يسأل فى حياء عن ذلك المخلوق البشع الذى يفترس الخطاة من البشر فى تلك اللوحة على جدران فناء المعبد ، وهو يرد بكلام محفوظ سلفاً دون أن يرى ساعله .. ولما رآه ، تغير كل شىء ، كل شىء .. مازال يذكر كلماتها وهمساتها ، بل وتعبيرات وجهها ، لكم تمنى ساعتها أن يتوقف الزمن ولا يتحرك أبدا .. لكن الزمن لا يتوقف ، يمضى غير عابىء بشىء ولا بأحد ..

مال قرص الشمس نحو الغروب ، وبدا الشفق بلونه الأحمر الداكن ، وتعددت الألوان المنعكسة على جدران المقابر ، وفوجىء الشاب بوجه ضخم يحدق فيه وعلى شفتيه شبح ابتسامة غامضة .. اهتز كيانه كله للحظة .. تسمّر فى مكانه وحدق فى ذلك الوجه الغريب «آه .. ماذا جرى لى ..» حبيبات العرق على وجهه بدأت تسيل على عينيه ، وتحجب عنه الرؤية ، استسلم للإرهاق والتعب فتهاوى جالساً على صخرة قريبة .. كان قد ابتعد كثيراً والظلام يوشك أن يحل ، وهو وحيد والمكان موحش ومقبض ، وذلك الوجه الحجرى الذى يحدق فيه بابتسامته الغامضة «يجب

أن أعود .. يجب ..» لكنه لم يتحرك ، مسح عينيه وهو يحاول أن يركز فى ذلك الوجه الذى يشعر بأنه ليس غريباً عنه .. «آه .. إنه أنت ..» كان وجه الملك «خا إف رع» الرابض هناك عند السفح أسفل المقبرة، بجسده الأسدى الضخم لكن .. لماذا كان قريباً منه إلى هذا الحد ؟ لماذا يحدق فيه ؟ هل يسخر منه ؟ أم تراه يشفق عليه ؟ «لابد أنه الإرهاق والتعب .. نعم» .. جلس ممسكاً برأسه بين يديه غارقاً فى الصمت والحزن والسكون..

- ادخل يا بنى ..

خيل إليه أنه سمع صوتاً ، تلفت حواليه بجزع وأرهف أذنيه .. لاشىء.. كيف ؟

هو على يقين من أنه سمع صوتاً .. وهاهو الفضاء الرحيب من حوله لايجيبه بغير الصمت .. «هل فقدت الوعى .. أم ترانى أهذى ..» .

- أدخل يا بنى ..

لا .. لايمكن أن يكون هذياناً .. هذا صوت حقيقى ، هب واقفا وأخذ يتلفت حواليه بعصبية .. مامن أحد فى الجوار .. من أين يأتيه الصوت إذن .. ؟ .

عزم على العودة .. مسح بعينيه المكان للمرة الأخيرة .. وتهيأ للمسير ، وفجأة جاءه الصوت قريباً هذه المرة ..

- لماذا لاتدخل ياولدى ..؟

بوغت الشاب عندما وجد أمامه رجلاً عجوزاً ، كأنه خرج من تحت الأرض ، أو هبط عليه من السماء .. كان الرجل يحدق فيه بعينين ضيقتين حادتين ويشير بيديه إلى المكان الذى يريده أ يتفضل فيه .. التفت الشاب حيث يشير الرجل فوجد ما يشبه فوهة كهف ..

أخذ «إيب - خنسو» ينقل بصره ما بين فوهة الكهف والرجل الماثل أمامه ، كان الأمر غريباً عليه تماماً حتى أنه نسى همومه ، ونسى تعبه الذى هد جسده منذ عبر إلى البر الغربى .. كان الرجل قصير القامة ،

www.dvd4arab.com

نحيل الجسم ، ينسدل شعره الكثيف على كتفيه ، ولحيته البيضاء تقترب من صدره ، أسمر الوجه ، ضيق العينين ، عريض الجبهة ، يرتدى ثوباً من قماش رخيص خشن .

– ادخل يا بنى .. لاتخف .. أنت هنا فى أمان ، أنت هنا بين الموتى ، وهم أكثر أمانا من الأحياء ..

قال الرجل وقد أرتسمت على وجهه ابتسامة جذابة لايدرى لماذا أوحت إليه بالأمان ، لكن قلب «إيب – خنسو» مازال يخفق بشدة من هول الموقف فلم يحر جوابا ولم يتحرك من مكانه .. إزدادت ابتسامة الرجل حتى بانت أسنانه كاملة رغم كبر سنه ، وأمتدت يده لتمسك بيد الشاب فجفل قليلاً .. ضحك الرجل وقال ..

– مم تخاف ياولدى .. أنا لست من لصوص المقابر ، ولا من قطّاع الطريق ..

– من أنت .. ؟

– أنا رجل عجوز كما ترى ، انتظر ساعتى المحتومة كى أرقد بسلام بين هؤلاء القوم تردد «إيب – خنسو» ، وأخذ يتقدم خطوة ويتأخر أخرى والرجل يستحثه حتى حزم أمره فتبع الرجل إلى داخل الكهف ..

(الحكيم إيبور)

كان الظلام حالكاً داخل الكهف ، ، كما كان السقف واطئاً مما أضطر «إيب – خنسو» أن يحنى رأسه وهو يسير مستنداً بيديه على الجدران بينما يصل إلى أذنيه صوت خطوات العجوز ثابتة واثقة ، بعد قليل وجد الشاب ذلك السرداب الضيق يتسع فجأة ليجد نفسه فى شبة حجرة مربعة واسعة فى نهايتها ضوء ضعيف ، ولح مايشبه الباب فى أحد أركانها وبضعة مصاطب طينية أسفل الجدران التى كانت خالية تماماً من النقوش والزخارف ، مما جعله يجزم بأن هذا المكان لابد وأن يكون مقبرة لم

Looloo
www.dvd4arab.com

تكتمل أو أنها أهملت بعد البدء فى إنشائها .. توقف ونظر إلى العجوز مستفسراً .

– هل هذه مقبرة ..؟

– نعم .. لكنها لم تستقبل أمواتاً بعد ..

جلس العجوز على مصطبة طينية ودعا الشاب إلى الجلوس ، فجلس على مصطبة . مقابلة وهو مازال يتأمل المكان ، أشار إلى الباب فى ركن الحجرة متسائلاً .. إلى أين يؤدى هذا الباب ..؟

– هذا ليس باباً حقيقياً .. إنه باب وهمى لتضليل لصوص المقابر ، الناس يخشون السرقة فى الدنيا .. وفى الآخرة ..

وأضاف العجوز ضاحكاً ..

– ولكن شتان بين مايسرق فى الدنيا ومايسرق فى الآخرة .. ما اسمك أيها الشاب وما حكايتك ؟

لا أقصد التطفل ، وأنت لست مضطراً للكلام على الإطلاق .

– ليس هناك الكثير مما يقال .. كل مافى الأمر أننى كنت أشعر بالضيق الشديد ، ولم أكن أريد أن أرى أحداً أو يرانى أحد ، فأتيت إلى هنا دون وعى أو اختيار ، ولم أشعر بمضى الوقت حتى ظهرت أنت .. هل تعيش هنا ؟

– نعم .. أعيش هنا منذ أعتزلت العالم .. أو تستطيع أن تقول منذ لفظنى العالم .. كان الشاب قد بدأ يستريح للرجل ، وللمكان ، وأخذت نفسه تهدأ وذهنه يصفو ، وراح يتأمل الحجرة ثانية واكتشف أن بالحائط المقابل له طاقة مستطيلة تمتلىء بلفائف بردى وخمن أنها تحوى بعض الكتب ، كما لاحظ وجود بقايا كسرات خبز على مصطبة مجاورة .. تنهد وعاد يتابع حديثه مع العجوز ..

– لا أفهم ماتعنى ..

– لا عليك .. ستعرف كل شىء فى حينه .. ولكن قل لى :

ماذا تعمل ؟

– أنا .. كنت أعد نفسى كى أكون كاهناً ..

– كاهن . ! هذا شىء عظيم وعمل جيد ، ولمن من الآلهة ستكون كاهناً ..؟

– للإله رع .. إله الشمس العظيم .. واهب النور والضياء ، وباعث الحياة ..

– ولماذا لا تكون كاهناً «لبتاح» أو «حتحور» أو «باستت» أو «خنوم» أو «سوبك» أو غيرهم ..

فوجىء الشاب وداخلته الريبة إذ أحس برنة سخرية فى سؤال الرجل ولم يحر جواباً وأخذ يقلب الأمور فى ذهنه ويسأل نفسه «من عساه يكون هذا الرجل .. ألا يؤمن بالآلهة ؟» .. لاحظ العجوز حالة الشاب فأشفق عليه ورسم ابتسامة خفيفة على شفتيه وهو يرمقه بحنوّ وقال معتذراً ..

– لا أقصد شيئاً مما يدور بذهنك ، لكنى أريد أن أقول : ألست معى فى أن هناك آلهة كثيرة ، بل أكثر مما ينبغى ؟

وأن الناس لايحتاجون إلى كل هذه الآلهة وهذه المعابد التى توقف لها الأوقاف وتنفق عليها الأموال حتى تمتلىء خزائنها وتفيض على الكهنة لا على العباد ؟

ظل الشاب على صمته فهذا الكلام جديد عليه تماماً ، لم يطرق مسامعه، ولم يرد على ذهنه من قبل ومع ذلك فهو كلام جدير بالنظر والتأمل ، وأدرك العجوز أن الشاب قد بدأ يفكر وينشغل بالأمر بشكل صحيح فسُر بذلك ورأى أن يغير مسار الحديث ، لكن الشاب فاجأه بسؤال مباغت قائلاً ..

– وأنت .. من تعبد من تلك الآلهة الكثيرة ..؟

تبسم العجوز وأمتدت يده تعبث بلحيته الكثة ، حدق فى وجه الشاب قليلا ثم أطرق طويلاً والشاب يرمقه منتظراً الرد ، وأخيراً رفع رأسه وقال.. «أنت شاب ذكى وما أريد أن أثقل عليك فالتعب باد على وجهك ، فما رأيك أن تستريح الليلة ثم نستكمل حديثنا فيما بعد» ..

Looloo
www.dvd4arab.com

– لا .. لا .. ليس بى حاجة إلى النوم أو الراحة .. ولن أستريح حتى توضح لى ماذا تعنى .. هل تعنى أنك لاتؤمن بالآلهة ؟

فطن العجوز إلى ما أعترى الشاب من إنزعاج وهلع ، وسرّه ذلك وإن لم يظهره فأراد أن يطمئنه قائلا .

– لم أعن ذلك أبداً ، فالإنسان لايمكنه الحياة بدون الإيمان بشىء .. إنما أعنى أن كل هذه الآلهة يمكن أن تكون إلهاً واحداً يجمع كل الصفات فى ذاته ، أى أن يكون إلهاً قادراً تتعدد صفاته وأسمائه ولكن لا تتعدد طبيعته هل تفهمنى؟

– إننا مثلا نقدس البقر ، لكن هذا لايمنعنا من أن نذبح البقر ونأكل لحمه ولا يمنعنا من استخدام البقر فى الحقول طوال النهار فى الزرع والحصاد .. نحن نقدس بعض صفات البقر لكننا لانقدس البقر ذاته ، وكذلك الأمر بالنسبة لسائر الآلهة الأخرى ..

– انظر يابنى .. ماذا ترى لو أننا جمعنا كل الصفات الطيبة فى البقرة والتمساح والكبش والصقر وابن آوى والقطة وغيرها فى ذات واحدة ذات لا تدركها العيون ولكن تدركها القلوب ، ذات لا شكل محدد لها ولا تحتاج للتجسيد فى صورة محسوسة .. ألا يكون هذا أقرب للإله الحق ؟!

الإله الذى يخلق ولا يُخلق .. والذى يرى ولا يُرى ..

استغرق الشاب فى تفكير عميق ، بدا كمن تلقى صدمة شديدة هزت كيانه وزلزلت بنيانه ، عاد بذاكرته إلى الوراء ، إلى ذلك اليوم الذى نعته فيه الكاهن كا رع غاضباً بالملحد ، لقد كان يقترب فى رأيه فى ذلك اليوم من هذا الكلام الذى يسمعه الآن وإن لم يكن مدركاً له تماماً بهذا الوضوح الذى يراه .. والآن فقط أدرك سر ثورة الكاهن العنيفة عليه .. الآن فقط أدرك أن للكهنة دورا آخر غير العبادة وخدمة العباد ، وأن لهم أغراضاً أخرى غير التقوى والإيمان والأخلاق وكل ما يحاولون ترويجه بين الناس عن العالم الآخر ومايجرى فيه وما ينتظرهم من نعيم أو جحيم ..

هل يمكن أن يكون كل هذا وهم كبير نجح الكهنة فى فرضه على الناس !

ومن هذا الرجل الماثل أمامى الآن ..؟

أيكون إلهاً متخفياً ..؟

أيكون خيالاً كذلك الوجه الحجرى الذى كان يطاردنى منذ قليل ؟

أم أن كل مايحدث لى وهم أو كابوس يجثم على صدرى ..؟

أين الحقيقة ..!؟ أين الحق ..؟

خرجت كلماته الأخيرة فى شبه صرخة مكتومة ، كان الشاب قد نهض فجأة وأخذ يدور حول نفسه ، ويضرب الجدران بقبضته وهو يصيح «أين الحق .. أين الحقيقة» واصطدمت يده بتلك اللفائف المكومة فى الطاقة فأمسك بها بين يديه ووجّه سؤاله للعجوز الجالس بهدوء تام ..

– أين الحقيقة ..؟ أين الحق ..؟

ماهو الحق ، وما هو الباطل ؟

أين الحقيقة ؟ أهى فى هذه الأوراق .. أهى كامنة هنا ..؟

قل لى أرجوك .. إنك لا تدرى ماذا فعلت بى .. إنك لا تدرى ما أحس به الآن ، إننى .. إننى .....

ولم يكمل ، فقد انهار وسقط على الأرض ممدداً وهو يتلوى كأن به مساً من الجنون والأوراق بين يديه يهذى بكلمات غير مفهومة ، وبينما كان الشاب يتلوى انحسر ثوبه عن كتفة الأيمن ، وما إن وقعت عينا العجوز على الكتف العارى إذا به يتجمد للحظة ويمد يده ليكشف بقية الكتف وظل يتأمله طويلاً ، انفرجت أساريره وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وهو يتمتم ..

– إنه هو .. إنه هو .. هذا ماظننته منذ البداية .. منذ وقعت عليه عيناى وأنا أحس أنه هو ، حمداً لك يا إلهى .. حمداً لك ، إذن لقد آن الأوان ... آن لى أن أستريح .. تناول الرجل قربة ماء وأخذ يرش وجه الشاب برفق ، وبدلك له يده وصدره وهو يتلو الأدعية والصلوات بصوت خافت حتى بدأ يفيق ويعود لوعيه شيئاً فشيئاً ، ساعده على أن يتكىء

www.dvd4arab.com

بظهره على المصطبة، وقدم إليه قربة الماء فراح يجرع منها حتى ارتوى وأحس بالراحة قليلاً ، أخذ يقلب عينيه حوله ، وكأنه يرى المكان للمرة الأولى حدق فى وجه الرجل قائلاً ..

– من أنت ..؟

ابتسم العجوز وقال :

– أنا من ينتظرك منذ زمن طويل ، هكذا تقول الرؤيا ، شاب بصفاتك وسمتك يأتى يوماً ما ليحمل الرسالة التى ناء بها كتفى زمنا ..

– أنا ..؟ تنتظرنى أنا ! إننى لا أعرفك ، وأنت لاتعرفنى ، فكيف كنت تنتظرنى ، وأى رسالة هذه؟

وكيف عرفت أنى المقصود ؟ من أنت ..؟

– كانوا يدعوننى الحكيم «إيبور» ..

صاح الشاب بدهشة وفرح ..

– أهو أنت ؟ أحقاً أنت الحكيم «إيبور» ؟!

لقد ظننتك .... معذرة ، لست أدرى ماذا أقول .. لكننى أشعر أنى سعيد الحظ إذ رأيتك و ..

هزّ العجوز رأسه وابتسم راضياً إذ تأكد ظنه وتخمينه بأنه يحادث الشخص المنتظر ..

– ها أنت ذا تعرفنى كما عرفتك، هل ترى فيما حدث اليوم مجرد صدفة؟ أم تراه تدبير إله قادر ؟ أم يكون ذلك تصديقا للرؤيا ؟

– عما تتحدث ؟ أى رؤيا ؟ أنا لا أعرف شيئاً عن هذا الأمر ..

– لا تتعجل .. ستعرف كل شىء فى حينه .. لكنك لم تقل لى، كيف عرفت اسمى ؟ ولم كنت تظن أنى قدمت ..؟.

– عندما كنت أدرس بالمعبد تصادف أن دخلت خزانة الكتب يوماً لأنظفها حسب الأوامر ، وتملكنى الفضول واستغرقت فى قراءة بعضها فوجدت اسمك، وقرأت تعاليمك، بل وحفظت الكثير منها وتعجبت، لماذا تخبأ هذه الذخائر عن الناس وتخفى كلية هكذا وكأن هناك حرصا شديداً

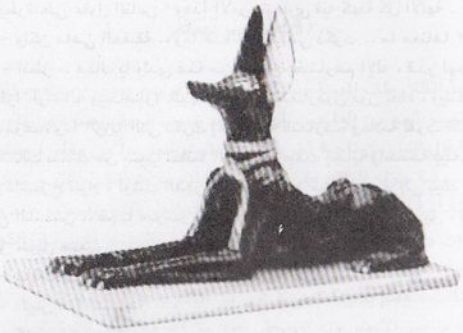

Looloo
www.dvd4arab.com

على ألا يعلم بها أحد، ولم أكمل إذ أن الكاهن المكلف بالإشراف علينا رآنى وكاد يجن هلعاً عندما اكتشف الأمر وهددنى بالفصل فورا من المعبد لو علم أحد بما اقترفت ، بل وبما هو أشد من الفصل ، فما معنى هذا ؟ لماذا انزعج الكاهن إلى هذا الحد ؟

– لأنك اقتربت من معرفة الحقيقة .. هناك بعض الأمور التى يخشى الكهنة أن يعرفها الناس وإلا فماذا يبقى لهم ..؟ وكيف يتسنى لهم السيطرة على عقول الناس ؟ وهذا الأمر يتساوى فيه كهنة كل الآلهة .

– ولكن ماهى الحقيقة .. وما هذه الرؤيا التى ذكرت .. ما معناها ؟

– انظر .. هناك يا ولدى فئة من الناس يختارهم الإله ، قدر لهم أن يحملوا الرسالة ويحافظوا عليها ، وهؤلاء يتعارفون دون لقاء ، ويلتقون دون موعد، وما الرؤيا التى ذكرت إلا وسيلة للتعارف، وعلامة لقرب اللقاء، ولو سألت نفسك عن سبب لقائنا اليوم لما وجدت إجابة واضحة بينة، قم الآن فاسترح قليلا ، أوشك الفجر أن يبزغ ولابد من أن تعود إلى بيتك قبل طلوع الشمس .. قم يا «نوسر» .. لقد وضعت قدمك على الطريق ، وهو طريق طويل صعب .

– ماذا قلت ؟ من «نوسر» هذا ..؟

– أليس هذا أسمك ؟

– كلا .. إن اسمى «إيب – خنسو» .. هكذا أسمانى أبى .

– لا .. لا .. هذا يبدو اسما مستعارا .. وعليك أن تبحث عن نفسك أولا .. هيا .. قم استرح الآن ولا تجادل فى شىء ، فقد تعبت أنا أيضا وليس لدى المزيد .. هناك ما يجب أن تتوصل إليه بنفسك .. هناك الكثير الذى يجب عليك أن تعرفه، وهناك الكثير الذى يجب عليك أن تتحمله .. لاتظن أن الأمر سهل يسير، إنه طريق وعر ومحفوف بالمخاطر والأهوال، والإله لايختار إلا من يستحق ، ومن يستحق هو الذى يصبر ويتحمل الشدائد، أما أنا فقد آن لى أن أستريح، سنلتقى ثانية فقد عرفت الطريق، أليس كذلك ..؟

فغر الفتى فاه دهشة، ومرة ثانية عصفت به الأفكار والظنون «ما معنى هذا ؟ لست «إيب – خنسو» ! من أكون إذن ؟ من أنا ..؟» لم يستطع أن يفتح فمه ليتكلم أو يسأل فقد رأى العجوز يتمدد على المصطبة صامتا .

«كان يوما ثقيلا .. مليئا بالأحداث والغرائب» وغاص الشاب فى لجة من الأفكار وأخذ يستعيد ماضيه يوما بيوم ما استطاع عله يجد علامة أو إشارة لما حدث له طوال هذا اليوم الغريب .

(٩) قلوب تنتظر

بدأ الظلام يلف المدينة بعباءته السوداء، ولم يعد «مرى إن بتاح» قادرا على تمييز أحد من العائدين إلى منازلهم بسبب ضعف بصره من ناحية، وعتمة أول الليل من ناحية أخرى .. ومن ثم لم يجد بداً من مغادرة مجلسه فى شرفة منزله الواقع على الطريق القادم من شاطىء النهر ممتداً باستقامة إلى وسط المدينة ومخترقا ذلك الحى الذى يقيم به عدد من الموظفين والكتبة فى دواوين الحكومة وبعض التجار وصغار الكهنة والضباط ذوى الرتب الصغيرة والأطباء وأصحاب الحانات .

كانت معظم بيوت الحى تتكون من طابق واحد مبنى بالطوب اللبن المطلى بالجير الأبيض وتحتوى على عدد من الغرف حسب الحاجة وحسب عدد أفراد الأسرة وبعض هذه البيوت كانت – خاصة الموسرة قليلا – توجد أمامها أو خلفها مساحة مربعة صغيرة إما أن تزرع بالخضراوات والفاكهة وإما أن تبنى فيها حظائر للطيور المنزلية كالبط والأوز والدجاج ويحيط بهذه المساحة سور من الطوب اللبن أو الشجر القصير .

وكانت شرفة منزل «مرى إن بتاح» تتيح له وهو جالس رؤية المارة فى ذلك الطريق، سواء المتجهين إلى النهر أو العائدين من الحقول .

ومع ذلك فلم يكن يستقر فى جلسته إلا قليلا ، ثم ينهض عندما يخيل إليه أن «ايب خنسو» هو القادم هناك .. عندئذ كان ينتفض واقفا ويقترب

www.dvd4arab.com

من سياح الشرفة ويستند عليه ويميل بجذعه محدقا، وعندما تتضح له الرؤية يسقط فى يده ويعود لكرسيه .. ثم لايلبث أن يعاود الكرة كلما ظن فى شخص قادم شبها «بايب – خنسو» ..

– لم يعد الولد بعد ..

قال وقد دخل إلى وسط المنزل وامرأته تحاول إشعال المشعل ، ويبدو أنها فشلت فى ذلك أكثر من مرة، لم يلاحظ «مرى إن بتاح» رعشة يديها ومع ذلك فقد تقدم هو وأشعله فانتشر ضوءه الضعيف فى أرجاء المكان جاعلا من خيالهما على الحائط المقابل شبحين يتحركان ببطء ، رفعه الرجل ووضعه فى الكوة المعدة له فى الحائط فاختفى الشبحان .. قالت بقلق .

– ألم يعد الولد ..؟

– لا .. لم يعد حتى الآن .. لكن .. على أية حال .. هو لم يتأخر كثيرا..

قال وهو يتجه إلى أريكة بجوار الحائط ويجلس، تبعته زوجته واتخذت مجلسها بجواره وهى تتفرس فى وجهه .

– «مرى إن بتاح» .. هل أنت مطمئن لتأخره .. أم تراك تحاول أن تهوّن علىّ وعلى نفسك ؟

– «حنوت – سن» .. لماذا أهون عليك أو على نفسى .. ربما .. ربما يدخل علينا الآن بضحكته المعهودة ، وهو يناديك بصوته القوى طالبا العشاء مدعيا أنه سوف يسقط ميتا من الجوع إن لم ..

لم يكمل «مرى إن بتاح» الذى كان يتكلم ونظره معلق بالحائط المقابل فقد تناهى إلى سمعه صوت زوجته وقد علا نشيجها ، التفت إليها والألم يعتصر قلبه وربت على كتفيها .

– لاتخشى شيئاً .. ولا تقلقى يا «حنوت – سن» .. إن ابننا عاقل، ولايمكن أن يؤذى نفسه من أجل شىء تافه كالذى حدث اليوم .

– أتسمى ما حدث اليوم شىء تافه .. لقد كانت تلك الفتاة هى كل أمله

فى الدنيا .. وتقول أنه شىء تافه .

– نعم .. شىء تافه .. ويجب أن تخجلى يا «حنوت – سن» من كلامك هذا .. إن ابننا له طموحات أكثر من هذا بكثير .. إنه يعد نفسه للمناصب العليا وجليل الأعمال ولا يمكن أن يكون كل أمله فى الدنيا الفوز بفتاة مهما كان شأنها .

– أنت قاس القلب يا «مرى إن بتاح» .. نعم .. أنت قاس .

وعلا نشيجها ثانية ، فلان الرجل وهدأ من حدته وعاد ليربت على كتفها فأزاحت كفه بغضب .

– لاتغضبى يا «حنوت – سن» .. إنما أقول بفمى ما ليس فى قلبى .. إننى فى الحقيقة قلق وخائف .. خائف جدا يا حنوت سن .. فاغفرى لى .

سرحت المرأة ببصرها فى المجهول والدموع مازالت تلمع بعينيها ، تنهدت وهى تتمتم .

– ترى .. أين أنت الآن يا ولدى ..؟

خيّم الصمت عليهما .. كل طوى قلبه على حزنه وقلقه وسكت ، ومرت اللحظات ، بطيئة ، ثقيلة ، وأصبح غياب الولد حقيقة واقعة ، والأمل فى عودته يتضاءل شيئا فشيئاً ، وفجأة .. انتفض الاثنان واقفين إثر سماعهما طرقا على الباب، تبادلا النظرات وفرحة الأمل على الوجهين العجوزين تزيد من تجاعيدهما، انطلقا معا فى اتجاه الباب ، كادت المرأة أن تتكفىء على وجهها ، ولكنها نهضت بسرعة وكأنها فى العشرين من عمرها ، سبقها الرجل إلى الباب وفتحه بلهفة ، وهو يوشك أن يقرع الولد .. لكنه .. لم يكن هناك.. خرج صوته ضعيفا مبحوحا .

– أهو أنت ..؟

– نعم هو أنا .. ومن تراه غيرى يمكن أن يطرق الأبواب فى هذه الساعة من الليل ..؟ هه ...؟ من يفعل ذلك غير «با – حور» .

ودخل دون أن يدعوه أحد وهو يواصل كلامه بصوته الجهورى المعتاد عنه.

Looloo
www.dvd4arab.com

– أين ذلك الولد .. صديقى «ايب – خنسو» .. لقد اشتقت إليه كثيرا.. أهو نائم .. دعونى أوقظه .. كيف ينام وقد عاد «با – حور» .

عندما أدرك وجود المرأة بالداخل تنتظر متلهفة .. واصل حديثه بنفس الصوت ..

– آه .. عمت مساء يا أمى الطيبة .. أين «ايب – خنسو» أنت أيها الشاب الكسول النائم .. استيقظ فوراً وإلا صببت دلوا من الماء على وجهك القبيح .

ظل الاثنان واقفين .. كل فى مكانه منذ دخل «با – حور» وقد اطرقا وتدلت ذراعاهما وعلا وجهيهما اليأس والقنوط والحزن، و«با – حور» مازال يملأ المكان بضجيجه وما إن أدرك الموقف حتى سكت قليلا وهو يتفرس فيهما وقد شعر بحرج الموقف ، تقدم من الرجل وحدق فى وجهه قائلا :

– ماذا حدث يا أبتى ..؟ أهناك ما يسوء ...؟

أومأ الأب مؤمناً على كلامه .. مد الشاب يده وأخذ بيد الأب واتجها إلى الأريكة وأجلسه وجلس بجانبه .

– قل لى يا أبتى ما حدث بالتفصيل ، وبسرعة فقلبى قد انشغل ولن أصبر طويلاً حتى أعلم كل شىء .. هل تعرض له أحد بسوء .. قل لى من هو وإنى – وحق الشياطين جميعاً – لقاتله على الفور ولو كان الكاهن «كارع» ، أو حتى كبير الكهنة نفسه .

وبينما أخذ الأب يحكى «لبا – حور» ما حدث من الكاهن «كارع» وخروج «ايب خنسو» وغيابه حتى الساعة ويعبر له عن قلقه وخوفه على الولد .. كانت الأم قد دلفت إلى الداخل لتعد «لبا – حور» شيئاً من الطعام والحلوى التى يحبها كما اعتادت أن تفعل كلما عاد من رحلاته ، وعادت لتضع أمامه الطعام ولكنه انتفض واقفاً وصاح ..

– معذرة يا أمى الطيبة .. هذه المرة الأولى التى لن أمد فيها يدى إلى طعامك اللذيذ هذا .. معذرة .. فلن آكل أو أشرب حتى أعود «بايب –

خنسو» – صديقى – .

وانطلق خارجا يرتطم سيفه بساقه من فرط انفعاله وسرعته .. وخيم السكون ثانية على الأب والأم اللذين جلسا صامتين وأمامهما مائدة الطعام لم يمد إليها أحد يده .. تنهدت الأم وهى تقول وكأنها تحدث نفسها.

– لكم أحب هذا الولد .. وكأنها خرج من بطنى ..!!

رمقها الأب بنظرة طويلة ولم يرد .

(١٠) لقاء الصديقين

عندما خرج « با – حور» مندفعاً من بيت صديقه «ايب – خنسو» لم يكن يعرف بالضبط إلى أين يتجه ، لذا فبعد وقت غير يسير قضاه بحثاً من شارع إلى شارع توقف فجأة وهو يلهث انفعالاً وليس تعباً وأخذ يفكر .. «إلى أين يمكن أن يذهب إيب خنسو؟» إنه لا يرتاد الحانات ولا أماكن اللهو ، ومن المستبعد أن يكون قد لجأ إلى المعبد ، وليس له أصدقاء يمكنه أن يلجأ إليهم سواه هو وجسر ، وبالطبع لا يمكن أن يذهب إلى جسر فى ظروف كهذه .. إذن .. أين هو الآن .. أين ..؟

– آه ..

تذكر فجأة أنه كان يذهب بصحبته كثيراً إلى شاطئ النهر ، ينتقى مكاناً معشباً يجلس فيه ، ويظل لساعات يتأمل تيار الماء القادم من الجنوب بأمواجه الهادئة ، وخاصة عندما يكون القمر بدراً تتكسر أضواءه الفضية على صفحة النهر مع حركة الأمواج الأمر الذى كان يضجر «با – حور» كثيراً وإن لم يكن يجهر به من أجل صديقه – فهو لم يكن يحب حالة السكون.

– لابد أنه هناك.

هكذا قال لنفسه ومن ثم فقد اندفع إلى الشاطئ مسرعاً وهو يمنى

Looloo
www.dvd4arab.com

نفسه بأن يجده عائداً من هناك أو على الأقل يجده جالساً شارداً كعادته فى مكان ما..

لما لم يتحقق شئ من أمانيه أخذ يجوب الشاطئ ذهاباً وإياباً ، وما من أحد أو شئ يتحرك فى الظلام.. وعلى بعد لمح لهب نار صغير يتأجج ، فاندفع تجاهه .. لم يجد غير نوتى قد أوقد ناراً يأتنس بها بالقرب من قاربه .. أحس النوتى بالقادم واستجاب على الفور لهاجس الخوف فاستعد وأخذ حذره وأطمأن على وجود المجداف فى متناول يده إذا دعت الحاجة ، وبصوت لم ينجح تماماً فى إخفاء نبرة الخوف فيه صاح..

– من .. ؟ من هناك ..؟

– لا تخش شيئاً أيها النوتى .. إنما أبحث عن صديق لى .. ألم يمر بك اليوم شاب من هذا الحى القريب اسمه «ايب – خنسو» ..؟

– أنا لا أعبر النهر بالأسماء يا سيد .. إنما عندئذ كان «با – حور» قد تمركز فى دائرة الضوء المنبعث من النار ، تأمل النوتى هيئة محدثه ، رأى شاباً مفتول العضلات ، فارع الطول يهتز سيفه بحزامه ، فأدرك أنه أمام ضابط أو جندى فى الجيش ، فأظهر الاحترام الواجب وغير من لهجته وأكمل ..

– إنما أنا فى خدمتك يا سيدى إذا أردت عبور النهر حتى لو كنا فى آخر الليل ، أما إذا كنت تسأل عن شخص بعينه فأنا قد عبرت اليوم بشباب وشيوخ ونساء كثيرين ولم أعرف لأحد منهم اسماً ، لكن .. انتظر.. لقد تذكرت .. نعم .. تذكرت أحدهم .. كان وحيداً .. ربما كان هو من تسأل عنه.. كان غريباً بعض الشئ .. لا بل كان حزيناً وشارداً .. حتى أنه.... قاطعه «با – حور» وقد بدأ صبره ينفد..

– كف عن ثرثرتك أيها النوتى وأجبنى عما سألتك إجابة مفهومة ومحددة..

– يا سيدى .. لو صبرت على لأجبتك بما تريد ، كنت أقول أنه كان حزيناً ويائساً حتى أنه أسقط جعرانه دون أن يشعر وعندما ناديته لأعطيه

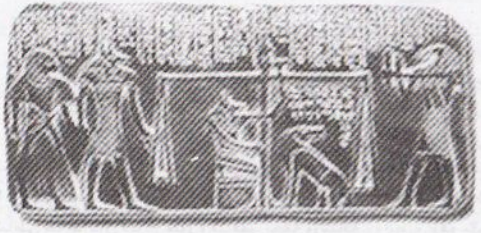

Looloo
www.dvd4arab.com

إياه رفض أن يأخذه .. وقال لى .. «احتفظ به أيها النوتى الطيب عله يجلب لك الحظ السعيد .. فهو لم ينفع معى .. «أى وحق الآلهة أجمعين ، هذا ما قاله لى بالضبط .. لم يصرخ بوجهى ، ولم ينهرنى..

– أين هو هذا الجعران ..؟

– ها هو يا سيدى ، هو الذى أعطاه لى وحق «بتاح» .. وحق «رع» .. وحق .. اختطفه «با – حور» وتأمله بالقرب من النار ، بان عليه الارتياح قليلاً ، فقد أيقن أنه جعرانه ، هو قريب إذن وسليم معافى..

– إنه هو ، هو من أبحث عنه «إيب – خنسو» صديقى ، أين ذهبت به أيها النوتى ..؟

– عبرت به للضفة الأخرى كما أمرنى يا سيدى .. هذا كل ما حدث ..

– ألم يعد ثانية ..؟

– لا .. لم يعد معى..

ألقى «با – حور» بالجعران للنوتى وأمره بصوت حاد أن ينهض ليعبر به إلى الشاطئ الآخر..

لم يجد النوتى مفراً من إجابة طلبه ، نهض مسرعاً ليحل رباط القارب بينما قفز «با – حور» إلى القارب ، أزاح النوتى وأمسك هو بالمجدافين وراح يجدف بقوة لم تكن متوفرة لدى النوتى ، وقبل أن يرسو القارب على الشاطئ تماماً كان «با – حور» قد قفز بخفة ورشاقة ، وانطلق وهو يقول للنوتى بصوت عسكرى آمر..

– انتظرنى حتى أعود.

تقوقع النوتى فى أرضية قاربه وهو متحير مما يجرى حوله ولا يستطيع فهمه، ظل يفكر فى الأمر قليلاً حتى غلبه النعاس فنام ، ولم يفق إلا على صيحة با حور وقد قفز إلى القارب وهو يأمره بالعودة ، تناول الرجل مجدافيه وهو يغالب نعاسه ، تساءل وهو يتثاءب ويبدأ التجديف بوهن عائداً للضفة الأخرى..

– ألم تجد صاحبك ..؟

– لا .. هل أنت متأكد أنه لم يعد معك..

– أنا على يقين من ذلك يا سيدى.. ربما عاد مع نوتى آخر .. هذا ما يحدث غالباً يا سيدى.. يذهبون معى ويعودون مع غيرى ..!

وعاد «با – حور» إلى صمته مستغرقاً فى تفكير عميق ، ولم يلتفت إلى ثرثرة النوتى وحكاياته حتى أنه وصل إلى الشاطئ دون أن يشعر. نهض واقفاً وخيبة الأمل بادية على وجهه ، وكعادته قفز إلى الشاطئ قبل أن يرسو القارب وانطلق دون أن يلتفت إلى النوتى الذى تابعه بنظراته متعجباً حتى اختفى فى الظلام..

لم يكن «با – حور» يدرى ماذا يقول لوالدى «إيب – خنسو» ، أحس فى نفسه ضعفاً .

وأنه لن يقدر على مواجهتهما وقد عاد خاوى اليدين من أى خبر ، لم يجد فى نفسه الجرأة ليذهب إلى بيته أو إلى بيت صديقه، شعر بجفاف فى حلقه ، وضيق فى صدره .. رأى أنه من الأفضل أن يقصد حاناً من تلك الحانات التى تسهر حتى الصباح ليحتسى قدحاً أو قدحين من الجعة ريثما تهدأ نفسه ويصفو ذهنه ، ثم يقرر بعد ذلك ما يمكن فعله ، وكأنه وجد المخرج مما يعانيه من قلق وخيبة أمل فاتجه مباشرة إلى الحان .. جلس شارداً ، مالت عليه نادلة جميلة وسألته عما يطلب ، رد وهو يتنهد طويلاً..

– أريد قدحاً من الجعة..

قالت بدلال محاولة إغواءه:

– قدحاً واحداً فقط يا سيدى .. أتريد أن تشرب وحدك ..؟

لم يرد ولكن نظرته إليها كانت كافية لكى تجعلها تفر من أمامه بسرعة البرق لتعود بعد قليل صامتة لتضع أمامه قدحاً من الجعة وتختفى مسرعة قبل أن يدرك وجودها..

لم يطل جلوسه فى الحان ، فلم تفلح الجعة فى إعادته إلى صفاء الذهن ، إضافة إلى أن الجو الخانق داخل الحان قد زاد من ضيق

Looloo
www.dvd4arab.com

صدره.. أحس أنه غير قادر على التنفس فنهض خارجاً.

استقبله هواء النزع الأخير من الليل ببرودته فأحس ارتياحاً ، أخذ نفساً عميقاً وهو يمشى على غير هدى ، لم يكن يدرى إلى أين يذهب حتى استقر به المقام على مصطبة طينية أمام مدخل بيت صديقه «إيب – خنسو» فجلس يقلب الأمر على كل وجوهه ويحدق فى الظلام الممتد حوله حتى غلبه النوم فى مكانه..

عندما فتح عينيه وجد ضوء النهار قد بدأ يتسلل من عتمة الليل ، فرك عينيه وتثاءب سائلاً نفسه «أين أنا ..؟» وعندئذ بدأ عقله يستيقظ وتعود إليه ذكرى الليلة الفائتة .. انتفض واقفاً كمن لدغته أفعى حين سمع صوتاً يعرفه جيداً يصيح به :

– «با – حور »!؟

ألقى كل منهما بنفسه فى حضن الآخر دون كلام ، وغابا متعانقين طويلاً .. ثم تواجها اللحظة يتأملان بعضهما ، كان كل منهما يبحث عن شئ تغير فى وجه صاحبه..

وفجأة لكزه «با – حور» فى صدره بكفه القوى قائلاً :

– أين كنت طوال الليل أيها الأحمق ..؟

– أين كنت أنت أيها السكير .. إن رائحة الجعة تفوح منك ..؟

وضحكا طويلاً ، أخذ «إيب – خنسو» بيد صديقه واتجها إلى داخل المنزل وهو يهمس فى أذنه محذراً.

– إياك أن تخبر والدى بشئ..

فهدر «با – حور» بغيظ وهو يكور يمينه ويرفعها فى وجه صديقه..

– وماذا أعرف أنا حتى أخبر أحداً بأى شئ .. قل لى .. ماذا أعرف ، أصبح «باحور» غريباً لا يعرف شيئاً عن صديقه الوحيد فى هذه الدنيا .. اللعنة علىّ .. أسرع «إيب – خنسو» يسد فمه بيده وهو يحلف بأنه سيشرح له كل شئ ولكن فيما بعد فسكت «با – حور» على مضض ، وكانا قد اقتربا من الباب..

طرق «إيب – خنسو» الباب الذى فتح سريعاً وكأن أحداً كان يقف خلفه.. وجد والده أمامه والتعب والإرهاق باديان على وجهه فالقى بنفسه بين أحضانه .. تلقاه العجوز وقد بللت دموعه وجهه ولحيته ، وجاءت الأم تهرول مسرعة فاتحة ذراعيها .. وهى تتمتم بالدعاء والثناء على «با – حور» .. دعاهم الأب للجلوس فجلسوا و «با – حور» يصيح بصوته الجهورى منادياً الأم التى كانت قد اختفت بالداخل..

– والآن يا أمى الطيبة نحن على استعداد لتناول كل ما عندك من الطعام الطيب والحلوى اللذيذة .. فأنا لم أذق طعاماً منذ الأمس..

ردت الأم من الداخل بصوت غلبت عليه الفرحة ..

– حالاً يا ولدى .. سيكون الطعام جاهزاً بين يديك.. إنك تستحق ما هو أكثر من ذلك .. إننى مدينة لك..

غمز «إيب – خنسو» لـ «با – حور» مهدداً..

– بماذا أنت مدينة لهذا الوغد يا أمى ؟! إنه لم يفعل ما يستحق عليه كسرة خبز..

– أحقاً لم أفعل شيئاً أستحق عليه كسرة خبز؟ إذن .. أخبرها أين كنت طوال الليل أم تتركنى أنا أخبرها ؟ أنا أقول لك يا أمى .. إنه ....

أسرع «ايب – خنسو» يضع يده على فمه كى لا يكمل ، و «با – حور» يحاول التملص منه ضاحكا والأب يراقب متبسماً ، صاح «إيب – خنسو» محاولاً تغيير الموضوع بينما الأم تضع أمامهم الطعام..

– لم تأخرت هذه المرة يا «با – حور» على الحدود الجنوبية ، هل الأمور هناك على غير ما يرام ..؟

أشاح «با – حور» بيديه وهو يبدأ فى التهام الطعام بنهم..

– ومتى كانت الأمور على ما يرام فى هذا البلد يا صاحبى ! إن الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ ، وإن لم تكن هناك قبضة قوية تمسك بزمام الأمر فسوف تحدث الكارثة لا محالة .. لم يعد هناك من يهتم بالجيش ولا أسلحته ولا تدريب الجنود ولا بناء الأساطيل كما كان يفعل

www.dvd4arab.com

أجدادنا العظام الأقوياء فى غابر الزمان .. ولذلك طمع الجميع فينا..

تدخل الأب فى الحديث موجهاً السؤال لـ «با – حور» ..

– أهم النوبيون ثانية .. ماذا يريد هؤلاء الناس ..؟

– لا .. لا يا أبى ، ليس النوبيون هم المشكلة الحقيقية .. إنهم قوم من أقصى الجنوب يحاولون الاستيلاء على بلادنا ويطمعون فيها بسبب ضعف الحكام وتراخى القوة العسكرية ، وهو ما يكفى لتشجيع أى أفاق على التجرؤ على أطراف البلاد..

– القوة العسكرية لا تنقصنا .. ما ينقصنا بالفعل هو قوة الإيمان..

هكذا رد «إيب – خنسو» بحدة على كلام «با – حور» مما جعل الأخير يضيف متهكما ..

– وهل أقاتل الأعداء بقوة إيمانى .. هل أتلو على العدو صلاة تردیه قتيلاً فى الحال تباً لكم يا صغار الكهنة ، لو ترك الأمر بيدكم لهلكنا قبل أن ينصرم العام..

– ألا تحتاج للآلهة كى تحقق النصر على الأعداء..؟

– وفيم أحتاج إليها .. إن قوتى فى ذراعى ، ورمحى فى يدى ، والعدو أمامى ، وإن لم أقتله فسيقتلنى ، ما دخل الآلهة فى الأمر إذن..؟

– كيف لا يكون لها دخل فى الأمر .. إنها .. إن كل شئ بيدها .. هى التى تمنح النصر ، وهى التى تحمى البلاد من الغزاة ، وهى التى..

– كفى .. كفى .. أترى لو هاجمنا جيش قوى يبغى القضاء علينا ، ولم يتصدى له جيش أقوى هل تتصدى له الآلهة ..؟

رأى الأب أن الحوار بدأ يتخذ مساراً آخر يتسم بالجدية مبتعداً عن روح المرح التى بدأ بها فرفع كلتا يديه مسكتا الشابين ومهدداً إياهما..

– يكفى هذا .. يكفى هذا .. كُلا وإلا طلبت من حنوت سن أن ترفع المائدة..

ضحكوا جميعاً وراحوا يأكلون باستمتاع ويتبادلون الأحاديث فى كل شئ عدا سبب غياب «إيب – خنسو» ، وأين وكيف قضى ليلته .. ولم يكن

هذا باتفاق بينهم بالطبع ، لكن يبدو أنه لم يكن لدى أى منهم الشجاعة ليخوض فى هذا الأمر الآن ، وبخلاف هذا لم يخف على الأم ما أعترى الشاب من ذبول وهزال ، وكذا شعر الأب بتغير أحوال الشاب وكثرة شروده، رغم محاولاته إظهار مشاركته فى مرحهم ودعاباتهم ، وعندما حان وقت انصراف «با – حور» ، ناداه «إيب – خنسو» قبل أن يغلق الباب خلفه منبهاً إياه..

– «با – حور» .. لا تنس .. فى الغد عرس صديقنا «جسر» ويجب أن نكون بجانبه ، بل لابد من ذلك..

توقفت يد «با – حو» على مقبض الباب ، وأطال النظر لصديقه ، وأومأ برأسه بما يعنى الاتفاق..

طموح الكهنة

بدأت الاستعدادات لزواج الشاب «جسر» و«ميريت» ابنة الكاهن، وعلقت الأعلام الصغيرة الملونة على منزل الكاهن وكذلك أمام منزل «جسر» ، وأعدت المصابيح على جدران المنزل من الداخل وعلى بوابته من الخارج، وبدأ توافد الموسيقيين وقارعى الطبول، وتبع هؤلاء عدد من المتسولين والعاطلين عن العمل، تكاثروا أمام المنزل مطالبين بشئ من طعام الوليمة، وهو ما أثار الكاهن فأخذ ينهرهم ويطردهم بعيدا عن منزله وهو يسبهم ، فتكوموا غير بعيد يتحينون فرصة أخرى للوصول إلى مأربهم ..

كان الكاهن قد استدعى ابنته قبل خروجه إلى حجرته، دخلت الفتاة وهى مطرقة وعلى وجهها أمارات حزن دفين .. رجع الكاهن بظهره إلى الوراء حتى يفسح لبطنه المجال كى تستريح .. أدام النظر قليلا إلى وجه ابنته ، وقال بصوت خفيض حاول أن يجعله حازما ..

– «ميريت» .. «ميريت» يا ابنتى الحبيبة .. ألست سعيدة بهذا الزواج المبارك كما أنا سعيد به .. ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

قالت وصوتها وهيئتها تخالفان ما تقوله ..

– بلى يا أبتى .. أنا سعيدة طالما أنت سعيد ..

سدد إليها نظرة حادة من عينيه اللتين تشبهان عينى القط الشرس ، وأوشك أن يصرخ فى وجهها ، لكنه تمالك نفسه فى اللحظة الأخيرة ..

– هل أفهم من هذا أن قلبك مازال معلقا بذلك الشاب الملحد الكافر..؟

رفعت رأسها للمرة الأولى ، وواجهت الكاهن، عينيها فى عينيه، نظراتها ثابتة ولهجتها تميل نحو الاحتجاج المكتوم ..

– إن «إيب – خنسو» ليس ملحدا ولا كافرا يا أبتى .. إنه شاب طيب.. وهو يعد نفسه كى يكون كاهنا، فكيف يكون كافرا أو ملحدا ..!

– لن يكون كاهنا أبدا .. لن يكون .. وسوف تثبت لك الأيام صدق قولى .. ولا تعودى لذكر اسمه أمامى ثانية ..

أخذ نفسا طويلا، ولانت لهجته فجأة وهمس بلهجة الناصح ..

– أنت لا تعرفين مصلحتك، لأنك لازلت صغيرة غريرة .. لا تنظرين لأبعد من موضع قدميك إننى أزوجك من كبير كهنة رع المقبل .. وربما .. ربما ما هو أكثر من ذلك.. نعم .. أنا على يقين من هذا .. هل تعرفين معنى ذلك .. ؟

وهنا نهض بصعوبة بالغة من كرسيه الذى بدا وكأنه حشر فيه، مسح حبيبات العرق التى نبتت على جبهته وصلعته بمنديله الحريرى وللم ثوبه الكهنوتى الفضفاض ، اقترب من ابنته فى حنان مصطنع واضعا يده السمينة على كتفيها ..

– هل تعرفين يا ابنتى الحبيبة معنى أن تكونى زوجة لكبير كهنة الإله رع..؟

الإله الرسمى للدولة .. للأرض السمراء كلها .. ؟

– لكن .. يا أبتى ..

قاطعها بسرعة وهو يسوى ملابسه متهيئا للخروج وإنهاء الحوار ..

– أعلم .. أعلم ما ستقولين .. لكنه سيحدث .. قريبا جدا سيحدث ..

إننا نعمل من أجل ذلك اليوم منذ زمن طويل .. وها قد أوشكت جهودنا أن تؤتى بثمارها .. سوف يصبح «رع» إلها أكبر .. وستقام له المعابد الخاصة فى جميع أنحاء الأرض السمراء .. معابد الشمس ذات المسلات الذهبية البديعة .. وسيتنافس الملوك فى وقف الأوقاف لمعابد رع .. سنصبح نحن سادة الكهنة، سادة لكل ما على الأرض .. هل أدركت الآن ماذا أعددت لمستقبلك..؟ دعينا من هذا الآن .. هناك أمر مهم أود أن أخبرك به وقد كدت أنساه .. أنا الآن سأذهب إلى المعبد لأنجز بعض المهام ، وربما أعود بعد الظهيرة وبصحبتى بعض الأخوة من الكهنة العظام .. أرجو أن تشرفى بنفسك على إعداد الطعام المعد لهم خصيصا، هل فهمتى ؟ لن أسمح بأى خطأ فى هذا الأمر .. آه .. هناك أمر آخر .. لا تتفوهى بكلمة أو حرف مما قلته لك الآن لأي إنسان .. أتفهمين ! حتى أنت نفسك .. هه ؟

أومأت الفتاة ومازال وجهها عابسا حزينا، بينما انفلت هو من الباب بصعوبة واتجه إلى الخارج متخذا طريقه إلى معبد الإله رع .. مضى يضرب الأرض الترابية الناعمة بقدمه الثقيلة فتثير سحابات صغيرة من التراب حول قدمه مخلفة أثر نعله الفاخر على التراب من خلفه .. بصق مرتين متأففا من هؤلاء المتسولين القذرين ومن رائحتهم الكريهة وهو يتساءل داخل نفسه «لماذا تخلق الآلهة أناسا بهذه القذارة ؟» ، عاد فتذكر مهمته اليوم فانبسط وجهه قليلا وراح يفكر ويأمل «آه لو كانت تلك المرأة صادقة فيما قالت» .. تذكّر ذلك اليوم الذى رأى فيه تلك السيدة المهيبة وهى فى زيارة غير متوقعة للمعبد .. كان حينئذ لايزال كاهنا صغيرا فى المرتبة الخامسة .. لا يذكر ماذا كان يفعل داخل قدس الأقداس وعندما شعر بحركة غير عادية وفوجئ بدخول السيدة التى طغت رائحة عطرها على روائح البخور والعطور داخل قدس الأقداس ، وبصحبتها كبير الكهنة لم يدر ماذا يفعل، فاضطر للاختفاء خلف تمثال الإله .. «يا له من يوم !» كلما تذكر أنه كان من الممكن أن يفقد وظيفته فى ذلك اليوم .. تصاعد

www.dvd4arab.com

الدم حارا إلى رأسه وشعر بدبيب كدبيب النمل يسرى فى كل جسده .. لما استعاد وعيه ، وأحس بأن كبير الكهنة ترك السيدة وحدها تناجى الإله، سمع ما لم يكن مفروضا أن يسمعه أحد مهما كان ..

لقد سمع مناجاة حارة ، ودعوات تخرج من قلب مكلوم أن يحفظ الإله ابنها الرضيع من كل سوء .. وأن يقيه شر الطامعين فى العرش .. كرر فى نفسه «الطامعين فى العرش !؟ .. لابد أنها زوجة الملك ..» استولت عليه الدهشة وتساءل .. «لماذا لم تذهب إلى معبد الإله «بتاح» ؟ .. أليس الإله «بتاح» هو الإله الرسمى للدولة .. ؟!

«هناك الكثير الذى لا أفهمه» .. عندئذ فقط، فطن الكاهن الصغير إلى مدى جهله بما يحدث من حوله، واستيقظت حواسه وغرائزه ، «لم لا يستفيد من كل شئ حوله .. ؟ لم لا يبحث هو عن الأسرار ولا ينتظر الصدفة .. ؟ وبالفعل بدأ يبحث بنفسه .. وما إن خرجت الملكة حتى تسلل خارجا وأخذ يراقبها، كان بصحبتها وصيفة لها ، عقد عزمه فى الحال : هذه الوصيفة هى وسيلتى لمعرفة الحقيقة» ..

إن كل ما يعرفه مما يدور من حوله لا يتعدى تلك الاضطرابات التى تحدث داخل أسوار القصر الملكى، وهى كثيرا ما تحدث كلما ضعف الملوك، وازدادت مشاكل وراثة العرش .. وهو أيضا يعرف كما يعرف كل الناس أن زوجة الملك لم تنجب ذكورا فيما عدا ذلك الطفل الذى قيل أنه مات أثناء ولادته .. فلمن تدعو الملكة إذن .. ؟ «هناك أمور غامضة ولابد من جلائها وكشف غطائها وهنا بدأ يلتفت إلى أحداث صغيرة ووقائع كان يحسبها تافهة مرت عليه فى هذا المعبد الصغير الذى التحق به دون تفكير أو نظر إلى المستقبل البعيد، فلو كانت له أطماع أو كان لديه طموح للمجد لكان قد التحق بمعبد «بتاح» رب «منف» ومعبودها الأول، ولكنه ألقى بنفسه فى هذا المعبد الصغير القليل الشأن لعبادة «رع» إله الشمس دون تمييز بين الآلهة أو العبادات لمجرد الهروب من الفاقة والفقر .. ولم يطف بذهنه يوما أن هناك حركات دائبة ومحاولات مستميتة للصعود برع إلى

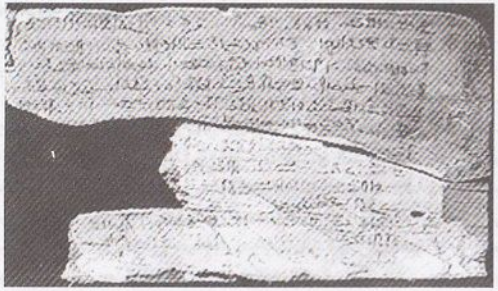

Looloo
www.dvd4arab.com

المرتبة الأولى بين آلهة مصر، تذكر زيارات كهنة غرباء لم يرهم من قبل للمعبد، تذكر أيضا وفود من كهنة المعبد كانت تخرج سرا لأماكن مجهولة لم يكن يدرى عنها شيئا ومبعوثين تبدو عليهم الأهمية من القصر الملكى يأتون للمعبد ويجتمعون سرا بكبار الكهنة .. وبدأت الصورة تتضح أمامه شيئا فشيئا ، وعندئذ بدأ يتحين الفرصة للصعود وتحقيق مكانة مرموقة لنفسه وعند هذا الحد من الذكريات كان الكاهن قد وصل إلى بوابة المعبد الخارجية، وإلى الواقع .. دلف من البوابة الضخمة واجتاز بهو الأعمدة الخارجى، وواصل سيره بتؤدة خلال البهو الداخلى، تأمل منظرا للإله حورس على الجدار الأيمن للبهو وقرص الشمس فوق رأسه ينشر الضياء للعالم ويخترق روحه، ويبعث الأمل فى صدره .. تقدم خطوات أخرى ، توقف أمام باب حجرة الكاهن الأكبر .. سوّى ملابسه ودعا رع أن يوفقه ويسدد خطاه ..

طرق الباب طرقات خفيفة، ودفعه بهدوء فأصدر صريرا خفيفا سمع بوضوح فى السكون الذى يشمل المكان .. أعاد غلق الباب من خلفه واستدار ليواجه كبير كهنة رع العظيم «سمنخ - كا رع» ، كان الكاهن الأكبر مضطجعا على كرسى فخم من الخشب اللامع، يدو مسنده المرتفع من خلفه مزينا بقرص الشمس ، تمتد أشعته الذهبية من أعلى إلى الجانبين فى شكل هرمى، تصاعدت رائحة البخور إلى أنف كا رع وهو يجثو على ركبتيه ساجدا أمام كرسى كبير الكهنة .

- بارك الرب العظيم رع اسم سيدى العظيم كبير الكهنة ..

ورفع رأسه قليلا ليرى أثر تحيته على وجه كبير الكهنة ، كان الوجه المغضن يتقرس فيه، والعينان الضيقتان تنفذان داخله، أحس برعدة خفيفة ، لكنه أبى أن يستسلم للشعور بالهزيمة ، لاسيما أن فى جعبته ما يسر الكاهن الأعظم، نهض ببطء ووقف مطرقا وبصوت خفيض قال :

- جئت على عجل حسب أمر مولاى .. أنا رهن إشارة مولاى الكاهن الأعظم ..

- يبدو أنك أصبحت كسولا أيها الكاهن ..

اغتصب الكاهن ابتسامة مبتسرة ، وعاد يجثو أمام كرسى كبير الكهنة وهو يلهث وتتعثر الكلمات على شفتيه ، ومن طرف خفى يلاحظ ملامح العجوز أمامه ولما لم يجد الغضب المرسوم على وجهه حقيقيا ، اطمأن فى داخله، لكنه تصنع الانزعاج الشديد وهو يصيح ولكن بحيث لا يسمعه أحد ..

- أنا .. ؟! أنا يا مولاى ؟! الرب العظيم «رع» وحده يعلم كم أحب مولاى، وأؤثره على نفسى ذاتها .. الرب العظيم وحده يعلم ما فعلت ومابذلت من جهد .. بل ومن تضحيات كى أحقق لمولاى الكاهن الأعظم ما يريد ويرغب .. إن جسدى هذا مهما كان سمينا، لا يدخر جهدا، ولا يهدأ حتى يحقق لمولاى ما يأمر به .. لقد .. لقد جئت مولاى اليوم بأنباء سارة.. نعم .. هى بالتأكيد أنباء سوف تبهج مولاى كثيرا ..

- هل وجدت الشاب الذى حدثتنى عنه .. ؟

أجل.. أجل يا سيدى ، إننى منذ زمن طويل أبحث وأنقب وراء هذا الشاب حتى تيقنت من حقيقته، وأصله الملكى الخالص ، ثم أضاف هامسا ، «إنه ابن الملك «شبسسكاف» والملكة «عنخ تا وى» .. كان قد ولد إبان الاضطرابات التى حدثت عقب موت الملك وقد أحطته برعايتى وعطفى واكتسبت ثقته ومحبته ، أصبح قريبا منى وكأنه من أهل بيتى ، واليوم سوف تراه فخامتكم ، وسوف تشهد بنفسك حفل زواجه من ابنة خادمك المطيع «كا رع» ..

- آه .. سوف تزوجه من ابنتك .. !

لم يخف المغزى الذى يلمح إليه كبير الكهنة على «كا رع» ، لكنه ابتلعه، وقال مؤكدا :

- أجل يا سيدى .. وبهذا الرباط سوف يكون بأيدينا ، ولا يستطيع أحد أن يؤثر عليه أو يبعده عنا .. سيكون بذلك فى يد سيدى يوجهه كيف يشاء فلا يعارض، ولا يجادل .. أليس كذلك يا سيدى .. ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

– لا يهم .. لا يهم .. المهم أن تكون على يقين من أمره .. وإلا وقعت الطامة الكبرى .. إننا نعمل جاهدين منذ سنوات لكى نرتقى بإلهنا وعبادتنا ومعابدنا إلى المرتبة الأولى فى كل البلاد، ولن نتنازل عن هدفنا ، ولن نسمح لأحد أن يفشل خططنا حتى ولو كان الملك نفسه .. أتفهمنى ..؟

كان كبير الكهنة صادقا فيما قال فقد حقق الكثير من أهدافه، فها هى معابد الشمس قد انتشرت فى كثير من المدن، ترتفع مسلاتها المذهبة شامخة فى السماء ، وازدادت موارد المعبد من الأراضى الخصبة والإقطاعيات زيادة كبيرة ، لكن المطوح كان كبيرا، وهل هناك حدود للطموح، «لابد من أن تدخل أصابعنا فى القصور الملكية حتى نشعر بالأمان الكامل» .. كانت هذه نظرة كبير الكهنة التى لم يكن يصرح بها إلا أمام خاصته ولكن الكاهن «كا رع» لم يكن من خاصته يوما ..

قال كبير الكهنة كلماته الأخيرة وقد سدد عينيه مباشرة فى وجه الكاهن وتقلصت ملامح وجهه حتى أحس الكاهن بالرعب، وأخذ العرق يتصبب غزيرا على جبهته ولأول وهلة بدأ الشك يتسلل إلى قلبه فيما يقول وفيما يعقد أنه صحيح .. تمتم بصوت خفيض لم يبين حتى لكبير الكهنة الذى لم يهتم بما يقول..

– اطمئن يا سيدى .. اطمئن ..

أشار إليه بالانصراف ، فتقدم خطوة للأمام وسجد أمامه ثم نهض وانصرف مهرولا تشيعه عينا كبير الكهنة بشئ من الاحتقار حتى أغلق الباب خلفه ..

أغلق كبير الكهنة عينيه، وراح يستعرض رحلة كفاحه هو ومن سبقوه فى سبيل إعلاء شأن الإله رع وعبادة الشمس ابتداء من تلك الحيلة القديمة التى دبرها أجداده فى عهد الملك «خنوم خوفوى» على لسان الساحر الذى تنبأ له بمولد من يرث العرش من أبناء كهنة الإله العظيم «رع» حتى اليوم وما تحقق فيه من نجاح فى هذا السبيل حيث كاد «رع» أن يصبح الإله الرسمى للدولة تقريبا، صحيح هناك بعض النفوذ لكهنة

«بتاح» ، لكنه لم يعد يرقى لنفوذنا ولن يستمر لوقت طويل، كما أن أصابعنا تمكنت من القصر الملكى وأصبح لها دور رئيسى فى اختيار الملوك أنفسهم، كانت حيلة ذكية لا ترد إلا على ذهن جبار ينظر إلى البعيد ولسنوات طويلة قادمة ولا يتعجل النجاح القريب الذى قد يكون رخيصا ، ولا يستمر طويلا، أما حيلتك أيها الكاهن الغبى «كا رع» فهى حيلة غبية مثلك تماما، ولن تنطلى على أحد ، ماذا يريد بمصاهرة من يظن أنه سيكون الملك .. ؟ تبسم ساخرا .. يريد أن يكون كبيرا للكهنة ! نعم .. لاشك أن هذا ما يطمح إليه .. ولو تُرك الأمر للأغبياء من أمثاله لضاع كل شئ ..

(وجه من الماضى)

كان «مرى إن بتاح» جالسا في ردهة منزله الفسيحة مستمتعاً بالراحة والهدوء والسكينة بعد عودة ولده سالما، وفي غمرة استسلامه للراحة أخذ يتذكر ذلك اليوم البعيد حين كان عائدا من عمله الليلى في حراسة مخازن الحبوب الملكية عند بزوغ الفجر ليجد على مصطبة منزله سفطا من سعف النخيل وشيئاً يتحرك بداخله ، جفل قليلا في البداية ، ثم عاد يحدق في السفط ليجد ذلك الطفل الجميل يهز يديه وقدميه بقوة دون بكاء ، مد يده ورفعه لأعلى فتوسط وجهه القمر الذى كان بدرا تلك الليلة فصاح «أنت إيب – خنسو ، أنت إيب – خنسو ، نعم أنت هو» واحتضنه برفق وحنان وقال فى نفسه " لا شك أن حنوت سن العزيزة ستطير بك فرحا .. ها هي الآلهة الطيبة تمنحها طفلا بعد طول انتظار ... " .

مرت به « حنوت – سن» حاملة كوبا من شراب الأعشاب الدافئ، يحب أن يحتسيه وقت العصر ووضعته امامه دون أن يشعر بوجودها ، حركت يديها أمام وجهه حركة دائرية ، فأفاق مبتسما ، بادرته قائلة ..

– فيم أنت مستغرق هكذا يا .. «مرى إن بتاح» .. انك لم تشعر بى ولا

Looloo
www.dvd4arab.com

بشيء حولك ، لكننى أراك تبتسم .. اصدقنى القول يا رجل حتى لاتذهب بى الظنون هنا أو هناك .. فيمن تفكر الآن ؟ ..

تعالت ضحكات الرجل حتى أن يده اهتزت بشدة وهو يتناول كوب الأعشاب وكاد أن يسقط منه فوضعه على المائدة وواصل ضحكه بنشوة، خرج صوته بصعوبة :

– آه يا زوجتى العزيزة .. «حنوب – سن » تظنين بى الظنون ؟!

أنا .. ؟ أمازلت تغارين على زوجك العجوز ؟ لا .. لا .. لا يجدر بك ذلك .. اتعرفين فيم كنت افكر الآن ، كنت اتذكر ذلك اليوم البعيد الذى وجدت فيه ابننا العزيز امام بيتنا ، وكيف رفعته بين يدى فجاء وجهه فى وسط القمر تماما، وكدت أخطىء ساعتها أيهم القمر وأيهم الطفل ..

– آه إنه حقا يوم لا ينسى .. اتدرى يا «مرى» أننى كلما تذكرت ذلك اليوم أشعر بخدر فى احشائى ! كأنى أنا الذى ولدته ..

وامتد حبل الذكريات بين العجوزين يعيد ماحدث ، وكانت هذه عادتهما كل حين، يجلسان معا، يستعيدان ذكرى ذلك اليوم السعيد، وماهبط عليهما من خير على يد ذلك الطفل المبارك إذ شفيت «حنوت – سن » من مرضها ، وإذ ترقى «مرى» فى عمله حتى أصبح مشرفا على مخازن الحبوب الملكية كلها، فانتقلا إلى هذا الحى النظيف بدلا من الحى الفقير الذى كانا يقطنانه ، ولا تنسى حنوت سن ابدا ان تذكر زوجها بتلك الهدايا التى كانت تلقى عليهما فى بيتهما دون أن يعرف احد من أين تأتى كل تلك الملابس الجميلة للطفل والقطع الذهبية بداخلها وكأن هناك من يتكفل به معهما، ولما اعياهما التفكير فى الأمر ارجعاه إلى الآلهة الكريمة التى تباركهما وطفلهما وكعادتها ايضا باحت حنوت سن بمخاوفها من أن يأتى يوم يعرف فيه الولد حقيقة الأمر، أو يأتى من يقول لها «اعطنى طفلى!» .

قطع حبل الذكريات فجأة اذ سمعا طرقا على الباب، تبادلا النظر ، فهما لا يتوقعان احدا فى مثل هذا الوقت، لا يمكن أن يكون «ايب –

خنسو» قد عاد بهذه السرعة من عرس صديقه ، وهما غير معتادين على زيارة أحد ، عاد الطرق مرة اخرى، بدأ مرى يتحرك في اتجاه الباب وعينا «حنوت – سن » تتابعه من عساه يكون ؟ هى لا تدرى لماذا تتوجس من هذا الطارق المجهول، نفس الإحساس كان يراود «مرى» ، كان هذا واضحا فى خطواته المترددة.. تقدم خطوات أخرى حتى أمسك بمقبض الباب وفتحه فوجىء بشخص ملثم يرتدى السواد، توقف مترددا ووقف الشخص ينتظر الدعوة بالدخول حتى أحس كلاهما بالحرج ، خرج صوت مرى واهنا لا يكاد يسمع ..

– من؟ وماذا تريد ؟

– هل سنتحادث هنا .. على الباب يا «مرى إن بتاح » ..؟

كان الصوت غريبا وواثقا .. لكن يبدو من نبراته أنه صوت انثوى ، وصعق الرجل حين سمع اسمه ومجردا من أى مظهر من مظاهر الاحترام، تمتم «مرى» بكلمات اعتذار وافسح لها الطريق داعيا اياها للدخول فدخلت بخطوات بطيئة وهى تتفحص المكان، كانت حنوت سن قد تساءلت عن القادم لكن المفاجأة لم تمكن «مرى» من الرد عليها فظلت مكانها تحدق فى شخص الداخل ولا تعرف ماذا تقول ..

جلست المرأة على الكرسى الذى كان «مرى» يجلس عليه فظل واقفا لايدرى ماذا يفعل وواجهت «حنوت – سن » قالت وهى ترفع نقابها:

– كيف حالك يا «حنوب – سن » الطيبة ؟

– ذهلت «حنوب – سن » وازدادت دهشة «مرى إن بتاح» وبدا الموقف غير مفهوم وغير مريح للعجوزين ، إن تلك المرأة تعرفهما جيدا، لكنهما لايعرفانها ولم يرها احدهما من قبل بالرغم من كشفها النقاب ووضوح وجهها الذى بدا طاعنا لكنه مازال محتفظا بمعالم جماله وأثر النعمة والحياة المرفهة التي لا ينعم بها غير اصحاب القصور والضياع من عليه القوم بادية عليه .. كانت لاتزال تتفقد بعينيها محتويات المنزل، حتى السقف لم يسلم من نظراتها الفاحصة، والرجل وزوجته ينظران ان تتكلم

Looloo
www.dvd4arab.com

وتفصح عن سبب زيارتها ، أو على الأقل تُعرّف نفسها.. وأخيرا قالت وعلى شفتيها ابتسامة لم تسترح لها «حنوب – سن» .

انتما بالطبع لا تعرفان من أنا ! وماسبب زيارتى خاصة فى غياب «نوسر» .. ازداد الامر تعقيدا بالنسبة للعجوزين وبدت الحيرة على وجهيهما ، كما سقط الخوف بقلبيهما عند ذكر هذا الاسم الغريب. قال مرى بصوت خرج بصعوبة ..

– معذرة يا سيدتى المحترمة .. نحن لا نعرف أحدا بهذا الاسم..

وعندما وجد فى نفسه القدرة على الكلام، ازداد جرأة وأكمل..

– ثم أننا لا نعرف من أنت ، فهلا تفضلت وقلت لنا من أنت وماذا تريدين منا ..

إننا لم نرتكب اثما مع أحد ، ولم نؤذ جارا ولم ..

قاطعته المرأة الغريبة قائلة :

– أعلم .. أعلم كل هذا.. واعلم اكثر مما تظن أيها الموظف المحترم «مرى إن بتاح» المشرف على مخازن الحبوب الملكية ..

ثم وجهت إليه نظرة حادة وهى تقول .. :

– هل كنت تحلم بمنصب كهذا ايها الرجل الطيب، وهل كنت تطمح أن تعيش فى هذا الحي النظيف بدلا من ذلك الحى الفقير الذى كنت تقطن؟ وهل كنت تنتظر طفلا جميلا يملأ عليكما حياتكما كـ « نوسر» ، أو من تسمونه «ايب – خنسو » ! ؟

وهنا تجمد وجه الرجل وادرك انه قد آن الأوان ليعيد الوديعة إلى اصحابها ، أما «حنوت – سن » فقد غاص قلبها بين جنبيها. أحست بيد تلك المرأة تمتد بلا رحمة لتزعه من صدرها فأجهشت وجسدها يرتعد بعنف، الطفل الذى كانا يظنانه عطية وهبة من الآلهة ، يأتى الآن من ينتزعه من بين احضانهما قائلا ببساطة إنه ابنه وليس ابنهما ، كيف ؟ لا.. هذا ليس عدلا .. لا يمكن ان ترضى الآلهة بهذا ابدا.. لا يمكن .. «ايب خنسو .. ! «نوسر».. ألا شأن لنا بكل هذا، نحن لا نعرف شيئا عن

هذه الأمور.. نحن نعرف فقط ابننا ، ايب خنسو، الذى يدعونى ابى، ويدعو هذه المرأة أمى ..» ..

دارت هذه الخواطر بذهن الرجل الذى احس بانه غير قادر على الوقوف على قدميه فاتجه ببطء إلى الأريكه وانهار عليها وهو يرمق المرأتين بنظرات غائمة .

كان كل همه وخوفه على «حنوت سن» الذى يدرك تماما انها لن تعيش ليوم واحد لو اخذ «ايب خنسو» منها ، وفجأة خطر له خاطر تمنى فى قرارة نفسه أن يكون حقيقة فنهض واقفا «ماذا لو كانت هذه المرأة كاذبة؟.. اتجه إليها فى الحال ، واجهها بقوة من يدافع عن آخر معاقله ، قال :

– هل تعنى السيدة المحترمة أن «ايب خنسو » ابنها وأنها جاءت اليوم لتأخذه منا ما الذى يثبت ادعاء كهذا ؟

قالت المرأة بهدوء وثقة :

– لا .. لا أعنى هذا ، إن «نوسر» أو ايب – خنسو ليس ابنى انا، ولم أت لأخذه منكما فاطمئنا ، اطمئنى يا «حنوت – سن » الطيبة فأنا أعلم مقدار حبك لـ «نوسر» ومدى خوفك وحرصك عليه وعندما اخترتكما أنتما لتكونا أبوين لـ«نوسر» كنت اعلم انكما ستكونان خير ابوين له.. وأنه سيكون سعيدا معكما ...

كان لهذه الكلمات وقع السحر على «مرى» و «حنوت– سن» ، عادت الدماء تتدفق فى عروقهما ثانية.. نهضت «حنو ت – سن» قائلة :

– معذرة أيتها السيدة الكريمة .. لم نقم بواجب الضيافة ، ساحضر لك مشروبا أو شيئا من الحلوى ..

أسرعت المرأة فجذبتها شاكرة لها كرمها لتجلس وطلبت من «مرى» ان يجلس هو الآخر لأن هناك أمرا تود أن تحادثهما فيه بخصوص ، «نوسر» فجلست «حنوت – سن » واحضر «مرى» كرسيا من جريد النخيل ليجلس مواجها السيدة التي لم يعرف اسمها حتى الآن والشعور بالقلق

Looloo
www.dvd4arab.com

والإحساس بالخطر مازال يراوده رغم هدوء باله نسبيا بعد علمه ببقاء الولد بين احضانه ..

اخذت المرأة شهيقا طويلا، وبدا عليها انها غاصت فى بحر من الذكريات البعيدة وظهر على وجهها أنها لم تكن ذكريات سعيدة بأى حال، وراحت بصوت ذو وتيرة واحدة تروى ما حدث ..

فى أواخر الملك «شبسسكاف » الذى لم تدم مدة حكمه لأكثر من اربع سنوات وفى عامه الأخير كانت زوجته على وشك الوضع، ولما جاء المولود ذكرا خافت عليه من الوضع السيىء داخل القصر خشية التخلص منه من قبل بعض الأمراء الذين كانوا يتنازعون العرش وادعت أنه مات فور ولادته وكنت أنا «محيت » الوصيفة الأولى للملكة والمفضلة لديها ، كنت انا التى ساعدتها في وضع وتنفيذ الخطة التي حافظت على حياة «نوسر» بمساعدة زوجى الضابط بالحرس الملكى ..

عقدت الدهشة لسان «مرى» وزوجته ، فقد فسرت هذه الحكاية الكثير من الأحداث التى لم يكن كلاهما يجد لها تفسيرا غير رضا الآلهة عنهما وعن الطفل..

عاودت المرأة روايتها للأحداث ..

– إلا أن الخطر ظل قائما حتى بعد نجاح خطتى أنا والملكة إذ يبدو أن الأمر تسرب دون قصد إلي آخرين فقد فوجئت ذات يوم بكاهن يدعى «كارع» وهو من كهنة رع يطاردنى ليعرف حقيقة الأمر لكننى عرفت كيف اضلله وأبعد الخطر عن «نوسر» فهؤلاء الكهنة كانوا وراء تلك القلاقل التى حدثت فى القصر فى ذلك الوقت بعد أن استفحل نفوذهم داخل القصر ، واصبحوا يتدخلون فى كل شيء حتى وصل بهم الأمر إلى السيطرة الكاملة على بعض الملوك وهو مالم يرض عنه بعضهم الآخر وهذا ماجعل النزاع يدب بين الأمراء ، ويصل أحيانا إلي حد التآمر للقتل ، وهذا ما حدث مع الملك «شبسسكاف» الذى لم يكن يستريح لهم ، وأنا ما جئت اليوم لآخذ «نوسر » منكم ولكنى جئت لأخبركما بالأمر فأنا على يقين من

Looloo
www.dvd4arab.com

انكما لا تعلمان به .

– نعم .. كنا نظن ان الآلهة هى التى ارسلته إلينا ..

– أيها الرجل الطيب .. إن الآلهة لا تلقى بأطفالها أمام بيوت الناس ، لكن الأمـر المهم الآن أن «نوسـر » له الحق فى العـرش ونحن وبعض المخلصين له ولوالده الذى لم يره نزعم ان نعيد له حقه قريبا، وما يجب علينا الآن ان نخبره بالحقيقة بطريقة هينة حتى لايصدم ، ونحاول أن نهيئة للأيام القادمة، فستكون صعبة عليه بالتأكيد وأريد مساعدتكما فى ذلك ، هل تفهمانى .. ؟

– بالطبع .. بالطبع ياسيدتى .. إن «إيب» .. اقصد «نوسر» يستحق كل الخير.. لم يكن هذا غريبا، فخلقه ينبىء عن طبيعته الملكية.. ولقد كنا – أنا وأمه – نداعبه وهو صغير ونقول له «أنت ماخلقت إلا لتكون عظيما يا إيب خنسو ..» ..

وكان يضحك كثيرا لهذا القول ، أليس كذلك يا «حنوت – سن » ؟.

لم تحر «حنوت – سن » جوابا فقد كانت دموعها تسيل دون ان يشعر بها أحد ومنذ أن أحست أن ابنها سوف يؤخذ منها، لم يكن فى كل ما قيل ما يعنيها ، إن ما يعنيها فقط هو ابنها الذى لا تجد مبررا معقولا ليبتعد عنها ويفارق احضانها ، ولم يجد «مرى»

بدا من مواساتها والحزن يعتصر قلبه من اجلها ، أخذ يربت على يديها وكتفيها محاولا تهدئتها ، لكنها لم تحرك ساكنا، وظلت نظرات عينيها جامدة ، كانت «محيت» تراقب ما يحدث ، ورأت ان ضعف المرأة وانهيارها يمكن أن يفسد الخطة قالت :

– لا تخشى شيئا يا «حنوت سن» الطيبة.. إنه لن يفارقك ابدا.. أنت أمه التى عاشت معه سنوات طويلة .. هو نفسه لن يرضى بذلك.. لو نجحنا فى أن نعيد له حقه فسوف تعيشين معه فى قصره الملكي.. أنا اؤكد لك ذلك .. لن تفارقيه ابدا.. اطمئنى ..

عندئذ فقط بدأت «حنوت – سن» تعود للوعى .. وتعى ما يدور حولها..

قالت وهى تمسح دموعها وتحاول أن تبتسم ..

– أحقا ؟ لن يفارقنى ؟ باركتك الالهة أيتها السيدة «محيت» .. باركتك الالهة ..

– وباركتك أنت ايضا ..

ثم اضافت محذرة ..

– ولكن .. احرصا حرصا شديدا على ألا يعلم احد بهذا الأمر.. أى أحد .. ففى هذا خطر كبير على حياة «نوسر» ، ان كهنة «رع» لا يعلمون بأمره ويظنون ان الوريث الشرعى شاب آخر وهم قد احتضنوه وعزموا علي إعلان امره فى الوقت المناسب لهم ولو علموا الحقيقة الآن فستكون حياة «نوسر» فى خطر كبير وربما.. ربما قتلوه ..

وصرخ الاثنان فى وقت واحد :

– لا .. لا .. لن نفتح فمنا بكلمة عما جرى اليوم .. لن يحدث هذا أبدا..

تهيأت «محيت» للنهوض وهى تكرر تحذيرها للعجوزين بكتمان الأمر، غطت وجهها تماما وانصرفت مسرعة .. وظل «مرى» و «حنوت – سن» يتبادلان النظر، لكنهما لم يتبادلا كلمة واحدة ..

– من أنا ..؟!

أصعب سؤال يمكن أن يواجهه الإنسان ، خاصة إذا ما سأله الإنسان لنفسه بعد أن كان يظن أن له حياة. وعليه الآن أن يعرف ومن كان ؟ من هو الآن؟ ومن سيكون؟ وتكثر الأسئلة ومامن رد يهدأ النفس ويريح الفؤاد ..

واحتار الشاب، كيف يبدأ رحلة البحث عن نفسه .. هل يسأل من يفترض الآن أنهما أبويه.. أم يسأل ذلك الرجل الذى كشف الغطاء عن بئر الأسرار .. أم يسأل ساحر أو منجم .. أم يسأل نفسه..؟! ..

ولماذا لم يسأل نفسه من قبل عندما كان يشعر أن هناك عيوناً تراقبه دون أن يرى وجوها.. وعندما كان يظهر له فجأة وعلى غير انتظار من

www.dvd4arab.com

يقيله اذا تعثر ، ويعينه إذا احتاج لمعونة.. ثم ماهذا الاسم الذى ناداه به الحكيم فى الكهف أو المقبرة.. من أين عرفه وكيف حدده.. لماذا وصفته «ميريت» ذات مرة بأن له وجها ملكيا.. الأمر الذى تكرر مع «با – حور» نفسه عندما قال له وهما فى بداية سنوات الرجولة «لولا أنى أعرف أبويك، لظننت أنك ابن أمير أو ملك..» ، وأثناء دراسته بالمعبد لايزال يذكر أن معظم الكهنة – فضلا عن رفاقه – كانوا يعاملونه باحترام، بل ويخفضون أنظارهم حين يتحدثون إليه .. ولايزال يذكر أيضا كيف تغاضى الكاهن بسهولة وسمح له بدخول المكتبة، المكان المحرم على كل الدارسين بالمعبد بل وعامة الكهنة وهذا الكاهن «كا – رع» .. لماذا كان يعتبره عدواً له دونما سبب ظاهر بينما قدم عليه «جسر» وقربه إليه وكأنه يكيده ..

– من أنا إذن ..؟

هل كنت طوال هذه السنوات التى تزيد عن العشرين أحيا حياة شخص آخر لا أعرفه..! أسكن جلده، وأحس بقلبه، وأفكر بعقله..؟ من هو هذا الشخص.. ومن أنا.. من أكون..؟ «إيب – خنسو» أم «نوسر» ..أم تراه شخص ثالث أو رابع قد أكونه.. كان كلما هاجمته هذه الهواجس والأفكار يجلس ساهماً شارداً كأنه غائب عن الوعى وعندما يراه «مرى إن بتاح» على هذه الحال ينوب قلبه شفقة وعطفا، لكن الكلام يتوقف على لسانه.. وفى هذا اليوم لم يستطع أن يتركه فريسة للحيرة والقلق والضياع، فقرر أن يتحدث معه، جلس بجانبه على الأريكة، وربت على كتفه بحنان وسأله..

– مابك يا «إيب – خنسو» ؟

– ليتنى أعرف يا أبتى .. ليتنى أعرف .. هل تعرف أنت ..؟ هل تعرف من أنا؟ هل أنا «إيب – خنسو» أم «نوسر» ؟ أم .....

دهش الرجل وظهر الخوف والانزعاج على وجهه ، ظن أن السر انكشف وشاع ، وفى ذلك خطر كبير على حياته كما يعلم ، سأله بلهفة ..

– من أخبرك بهذا الاسم ؟

– دعك من الاسم والأسماء فهى لا تعنى شيئا ، أريد أن أعرف أولا من أنا؟

قال الرجل وقد اعترته حالة من اليأس والتسليم بالأمر الواقع ..

– إذن فقد عرفت ..!

صرخ «إيب – خنسو» صرخة يائس ، وهو ينهض ويجوب الردهة رائحا غاديا ..

– لم أعرف شيئا .. لم أعرف .. يبدو أن الجميع يعرف عنى مالا أعرف أنا .. قل لى يا أبى أرجوك .. ماهى الحقيقة ..؟

– سأقول لك كل شىء .. لا فائدة من اخفاء الأمر الآن .. تعال اجلس بجانبى هنا..

أسرع الشاب بالجلوس بجانب الرجل بعد أن وجد بصيصا يمكن أن يقوده الى الحقيقة التى ينشدها .. جلس وقد تهيأ للاصغاء بكل جوارحه..

وبدأ «مرى إن بتاح يحكى له ماحدث منذ وجده على باب منزله طفلا رضيعا فى سفط من سعف النخيل ، وظنه هبة من الآلهة له ولزوجته التى لا تنجب ، خاصة بعد الخير الوفير الذى انهمر عليهما بعد احتضانه ، وظل هذا الاعتقاد راسخا فى نفسه حتى الأمس ، بالأمس فقط عرف وتيقن أنه لم يكن هبة ولاعطية من أحد ، بل كان مجرد وديعة، وديعة يجب أن ترد إلى صاحبها حين يطلبها .. وسكت الأب هنيهة ريثما يسترد أنفاسه التى أنهكها الانفعال، لكن الشاب المتعطش أبى عليه ذلك وأخذ يستحثه ليكمل.

نعم يا «إيب – خنسو» أقصد يا .. «نوسر» .. أنت لم تكن هبة إله ، أو ابناً لامرأة ضالة.. أنت ابن ملك، وأمك ملكة مبجلة ، وليست حنوت سن المسكينة، لكنك كنت بالنسبة لنا هبة حقيقية من إله رحيم لا أعرف من هو .. هبة ملأت علينا حياتنا، وأدخلت البسمة إلى قلوبنا، جعلتنا نعرف معنى السعادة والحب، هذه هى الحقيقة التى أعرفها، فهل استرحت الآن ..؟ هل عرفت من أنت؟ كانت كلمات الأب تنساب من فمه هادئة، تتخللها أنفاسه

Looloo
www.dvd4arab.com

اللاهثة من فرط انفعاله، واحساسه بقرب فقدانه أعز شيء لديه ..

وفى الوقت نفسه كانت هذه الكلمات الهادئة تضرب أذنى الشاب كالرعد، وكأنها تهدم كيانه كله ، وتعيد بناءه فى صورة أخرى .. نهض من مكانه بجوار والده ذاهلا وأخذ يدور فى المكان ويتأمله كأنه يراه للمرة الأولى ، يتحسس الأشياء ، ويتلمس الجدران، يفتح الباب ويغلقه ويتكلم دون أن يوجه كلامه لأحد..

– هل تعنى أن هذا البيت ليس بيتى .. وكل هذه السنوات التى قضيتها بين جدرانه ليست من عمرى .. هذه الأريكة التى طالما جلست عليها مع أصدقائى ، وهذه المقاعد ، وهذه المائدة ، وحتى هذا السقف الذى أظلنى .. كل هذا لم يكن لى أنا وحتى أنت .. أنت نفسك .. لست أبى .. أبى الذى ناديته صغيرا وكبيرا أبى .. وهذه المرأة القاعدة بالداخل تعد لى طعامى أو تحيك لى ملابسى ، ليست أمى .. هذه المرأة التى أعطتنى من الحب والحنان مالم تعطه أو لولدها ليست هى أمى .. كيف ؟ أليس هذا عبث ..؟ أم تراني فى حلم مزعج .. أو كابوس سخيف .. وأننا لن نلبث أن نصحو منه جميعا .

– اهدأ ياولدى .. اهدأ .. تلك إرادة الآلهة .. إن لك بيتاً أفضل من هذا البيت.. وأهلا أفضل من ..

أسرع الشاب مقاطعا وقد فرد راحته فى وجه الرجل ..

– لا .. لا تكمل .. لا تكمل يا أبى .. لسوف أظل أناديك أبى ماحييت ، وأنت ياأمى تعالى هنا من فضلك.. تعالى ..

خرجت «حنوت – سن» من الداخل وهى مطأطأة الرأس تترقرق الدموع فى عينيها ، كانت تستمع لكل ما يجرى ، وهى منذ أدركت الحقيقة وهى تطوى جناحها على أحزانها ولا تتكلم مع أحد حتى زوجها .. توسطت الردهة ووقفت ساكنة، جامدة الملامح ، تمتمت..

– هل .. هل ستتركنا اليوم ..؟

– لا .. لا ياأمى .. لن أتركك أبدا .. إنى .. إنى أحتاج لحضنك اليوم

أكثر من أى وقت آخر .. لا تتركينى أنت .. لا تتركينى

فتحت ذراعيها عن آخرهما ، ارتمى الشاب بينهما فأطبقت عليه بعنف وصوتها يرن فى أرجاء المنزل وتردد الجدران صداه ..

– .. ولدى..

(ابن الملك يعرف)

هدأت الأمور قليلا ، واستقرت نفس «إيب – خنس) أو «نوسر» بعد أن عرف الحقيقة التى كان ينشدها بخصوص مولده وأصله ، وجلس ذات صباح تتقاذفه الأفكار ، لقد تغيرت أشياء، ويجب أن تتغير أشياء تبعا لذلك، عرف الآن من هو، لكن ترى هل يستطيع أن يعرف من سيكون ..؟ عجيب أمر هذه الدنيا .. إن عليه الآن أن يختار لنفسه حياة أخرى ، لم تكن لديه هذه الفرصة من قبل، لقد ولد وعاش حياته حتى الآن دون اختيار، وعليه الآن أن يختار ، أيكون الملك؟ أم الكاهن .. أم الاثنين..؟ لاشك أن كونه الملك يمكنه أن يساعد كثيرا فى اعلان أمر الرسالة، لكن .. هل الوقت مناسب بالفعل لأمر كهذا؟ الواقع يقول.. لا.. لا يمكن الجهر بالرسالة إلا فى الوقت المناسب، وهذا الوقت لايوجد من يحدده الآن، المطلوب فقط حملها والحفاظ عليها حتى تصل إلى من يجهر بها وينفذها فى الوقت المحدد لها .. هو يأمل بالطبع أن يكون هذا هو زمن ظهورها ، لكن مايراه حوله من تدهور فى الأخلاق وفساد فى النظام وسيطرة للتشاؤم وانتشار للفوضى وغياب للعدل ، كل هذا يجعل من ظهورها أمرا صعباً .. ثم يتراجع ويقول لنفسه أن مثل هذه الرسائل لاتأتى الا لتنير الظلام وتقيم العدل ، وأن هذا الزمان خير وقت لظهورها ..

هز رأسه يأسا ، فلم يعد قادرا على رؤية شيء ، أو تحديد رأى .. وأكد لنفسه «لا مفر من زيارة الحكيم ايبور» .. وبينما هو غارق فى تأملاته فوجيء بـ «با – حور» واقفاً على رأسه .. ظهرت عليه الدهشة وقال له ..

Toobaa
www.dvd4arab.com

– «با – حور» !؟ هل أنت هنا؟.. منذ متى وأنت هنا ..؟

– منذ .. منذ الصباح الباكر ، وأنت .. منذ متى وأنت غائب عن الدنيا..؟

– آه .. آه يا «با – حور»، لقد تعبت ، لكم أتمنى أن تطير رأسى من فوق كتفى حتى أستريح .. قل لى يا «با – حور» .. واصدقنى القول كعادتك .. كيف ترانى الآن ..؟

– أراك كما عرفتك دائما .. صديقى ورفيق حياتى .. حتى لو أصبحت ملكا فسوف أكون بخدمتك ، وحياتى فداء لك ..

– هل تصدقنى يا «با – حور» لو قلت لك إنى لا أريد أن أكون ملكا..؟

– نعم .. أصدقك .. فقد تعودت على جنونك منذ زمن طويل ، كف عن الثرثرة الآن وقم معى .. هناك زائرون يريدون رؤيتك الآن .. هيا قم ..

ومد يده وقبض على يد «إيب – خنسو» وجذبه فخرج معه بلا مقاومة أو حتى سؤال عن هؤلاء الزوار ، وجد بضعة أشخاص يجلسون فى ردهة البيت لا يعرفهم ، وإن كانت وجوه بعضهم ليست غريبة عليه تماما ، انتفضت سيدة واقفة حال رؤيتها الشاب ، أخذت تتأمله وصدرها يعلو ويهبط ، اقتربت منه ووقفت قدامه ، خرج صوتها مكتوما من شدة الإنفعال وهى تمد يدها تتحسس وجهه ..

– ولدى .. «نوسر» .. ولدى ..

فهم على الفور أنها أمه التى ولدته ، فربت يديها برفق ، ثم رفعهما إلى فمه ولثمهما فجذبته إلى حضنها ، و«حنوت ـ سن» تتابع المشهد وعيناها تدمعان، وكذلك «محيت» ، أراد «با – حور» أن يخفف من حدة العواطف الجياشة التى يمكن أن يغرق فيها الجميع فوجه الكلام إلى «إيب – خنسو» قائلا وهو يشير الى الضابط «منتو» ..

– أتذكر ياصديقى هذا الضابط العظيم ..؟ ، إن صورته مطبوعة فى رأسى منذ ذلك اليوم الذى قابلنا فيه عندما خرجنا الى الصحراء ونحن صبية ..

أومأ «إيب – خنسو» بالإيجاب ، وكانت هذه إشارة للضابط لكى يدخل فى الموضوع الذى جاءوا جميعا من أجله، فبدأ حديثه على الفور متوجها إلى «إيب – خنسو» ..

– سيدى «نوسر» .. لقد كنت ضابطا فى حرس أبيك الملك «شبسسكاف» ، وكنت من المقربين اليه ، وواجبى أن أبذل جهدى حتى يعود اليك حقك فى عرش البلاد وبذلك أكون قد قمت بواجبى نحو أبيك الذى كنت أحبه كثيرا ، خاصة وأنا أعلم ماكان يبغى ، من أجل رفعة شأن البلاد ، وما كان يحلم به من مجد وعظمة للأرض السمراء كلها ، لكن الظروف لم تساعده ، والعمر لم يسعفه والأمل معقود عليك أنت لاستكمال هذه المسيرة، ونحن هنا اليوم لنبدأ الكفاح من أجل هذا ، ونحن لسنا وحدنا بالطبع ، معنا أنصار كثيرون فيما لو حاول كهنة رع اعاقتنا..

وسكت «منتو» قليلا ليرى تأثير كلامه على الشاب ، ولما طال سكوت «إيب – خنسو» «انبرى» «با – حور» قائلا بحماس ..

– تكلم ياصديقى .. أقصد ياسيدى «نوسر» .. إننا فى انتظار اشارة منك لنبدأ الإعلان عن اسم الملك الجديد، فالملك «خا – نفر – رع» لن يظل فى الحكم طويلاً وهناك أنباء تفيد بأن كهنة «رع» لديهم نية تنصيب ملك آخر ربما يكون من الكهنة وليس من بيت ملكى.. فلا تتردد ياصديقى..

تساءل «إيب – خنسو» مندهشاً..

– ولماذا يعترض كهنة رع على تنصيبى ملكاً؟.. ألست من كهنة رع أم أنهم فصلونى من المعبد؟..

رد الضابط «منتو» قائلاً:

– لأن اسمك ونسبك سيكون مفاجأة لهم، فهم لا يعرفون اتجاهاتك ولا نيتك تجاههم، هم يريدون ملكاً يصنعونه بأيديهم، يأتمر بأوامرهم وينفذ أغراضهم، وقد وصل بهم الأمر الأمر إلى حد أنهم يريدون تنصيب شاب يدعى «جسر» ملكاً على البلاد مدعين أنه من نسل الملوك السابقين.

Looloo
www.dvd4arab.com

أكملت الوصيفة «محيت» حديث منتو قائلة:

– نعم.. يحسبون أنه المقصود.. وأنا الذى أوحيت بذلك للكاهن «كارع» عندما طاردنى ليعرف لمن كانت سيدتى «عنخ تاوى» تدعو فى المعبد، فخفت عليك وضللته وفهم هو من إشارتى أنه الشاب الآخر، فقر به إليه وزوجه من ابنته ظناً منه أنه سيكون ملكاً يوماً ما..

استولت الدهشة على كل من «إيب – خنسو» و«با – حور»، وعرف «إيب – خنسو» الآن فقط سبب معاملة الكاهن السيئة له، صاح:

– «با – حور».

– «جسر»؟! صديقنا؟! هل تصدق ما يحدث ياصديقى؟..

– نعم يا«با – حور».. الآن أصدق.. لكن «جسر» بالتأكيد لا يعلم شيئاً مما يدور حوله.

– وهذا يدعونا إلى الإسراع فى إعلان الأر حتى نفوت الفرصة عليهم.. أليس كذلك ياسيدى الضابط «منتو»؟..

– نعم.. لكن بعد أن نسمع رد سيدى «نوسر» حتى نبدأ التحرك من الآن..

اتجهت الأنظار كلها إلى «إيب – خنسو» تنتظر رده، لم يكن أحد منهم ينتظر أن يتردد الشاب أو حتى يتباطأ فى الرد، لكن سكوته طال أكثر مما ينبغى فبدأ القلق يساورهم خاصة «با – حور» الذى سمعه منذ قليل يقول أنه لا يريد أن يكون ملكاً.

وخشى أن يكرر ما قال على مسامع الحاضرين، فأخذ يستحثه بنظراته، لكن «إيب خنسو» رد بصوت هادىء وبنبرة حاسمة:

– سوف أعطيكم ردى غداً.. إن علىّ أن أقوم بمهمة قبل أن أجيبكم..

تبادل الجميع نظرات التعجب والدهشة من هذا الرد غير المتوقع، مالت عليه أمه الملكة وهمست متسائلة عما يقصد، بينما تساءل:

– «با – حور» مستنكراً..

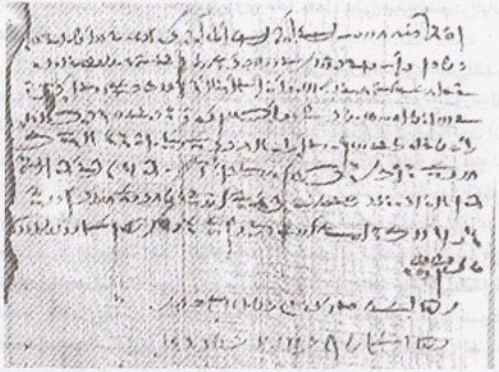

Looloo
www.dvd4arab.com

– مهمة؟! أية مهمة تلك ياصديقى؟ إن الأمر لا يحتاج منك أكثر من كلمة واحدة.. قلها ياصديقى.. قلها حتى نستريح جميعاً..

– لا أستطيع أن أقطع برأى الآن، لابد من القيام بهذه المهمة أولاً.. لابد ولن أطيل عليكم، سأقوم بها الآن..

ونهض واقفاً واتجه إلى الباب ليخرج والعيون تتابعه بدهشة، هب:

– «با حور» خلفه عازماً على مصاحبته إلا أن «إيب – خنسو» أوقفه بإشارة من يده فوقف متحيراً لا يدرى ماذا يفعل حتى سمع صوت الباب وهو يقفل، أشار له الضابط منتو فاندفع خلفه.

اتخذ «إيب – خنسو» طريقه مباشرة إلى البر الغربى، عبر النهر وصعد إلى الطريق المؤدى إلى المقبرة التى يسكنها الحكيم «إيبور»، لم يلتفت للخلف مرة واحدة وبذلك لم يلحظ «با – حور» الذى تبعه دون أن يدرى، كانت شمس الظهيرة تلسع وجهه وتصبب العرق غزيراً على جبينه من شدة الحرارة والانفعال، لكنه لم يكن يأبه لشىء سوى ماجاء من أجله، وصل إلى المقبرة فوجد حجراً يكاد يسد فوهتها فتعجب، لم يشاهد هذا الحجر من قبل، توجس شراً فخفق قلبه لكنه دخل، لم يتمكن من الرؤية فى البداية بسبب انتقاله مباشرة من ضوء الشمس الساطع إلى الظلام الدامس فأخذ يتحسس طريقه بيديه، نادى بصوت خفيض، جاوبه صوت ضعيف يدعوه للدخول، وبصعوبة شديدة بدأ يميز المكان، حدق فى الضوء الضعيف داخل الحجرة، وجد الحكيم ممداً على إحدى المصاطب يبدو عليه الوهن الشديد، سأله:

– هل أنت نائم ياسيدى؟..

– لا ياولدى.. لست نائماً.. لكن يبدو أننى أستعد لرحلة الأبدية.. ألم أقل لك من قبل أنه قد آن لى أن أستريح!..

– هل أنت نائم ياسيدى؟..

– لا ياولدى – لست مريضاً.. لكن يبدو أننى أستعد لرحلة الأبدية.. لم

أقل لك من قبل أنه قد آن لى أن أستريح..!

– هل أنت مريض يا سيدى؟

– لا.. لا ياولدى، لست مريضاً.. لكن يبدو أن ساعتى قد حانت كى أستريح، كنت على يقين من أنك ستأتى.. لابد وأن تكتمل الدورة.. وها قد أتيت، أنظر.. هذه هى الرسالة.. هناك فى هذه الأوراق.. خذها معك واحتفظ بها فى مكان أمين، بعيداً عن أيدى العابثين والجهلة.. احتفظ بها يابنى، هذا كل ما أرجوه منك..

كانت الكلمات تخرج من فم الرجل متقطعة، وأنفاسه تتلاحق كأنه يخشى أن يموت قبل أن ينتهى مما أفزع الشاب، نظر إليه باشفاق وأسى، قال:

– يحسن بى أن أنقلك من هنا، يجب أن تتلقى علاجاً..

سارع الرجل بالاعتراض رافعاً يده بصعوبة وقد تحشرج صوته وهو يقول:

– لا.. لا.. لا فائدة.. ماهو مسطور، لابد أن ينفذ، هذا.. هذا آخر يوم لى فى هذا العالم.. بل قد تكون آخر ساعة.. لقد عشت طويلاً بما يكفى أن أطلب الموت بنفسى.. لا تهتم بى.. لديك ماهو أهم.. الرسالة.. الرسالة..

وراح الرجل يكرر الكلمة عدة مرات ثم سكت فجأة حتى ظن الشاب أنه مات، اقترب منه، وضع يده على صدره، كان يعلو ويهبط ببطء شديد، همس الشاب..

– يجب أن أنقلك من هنا إلى المعبد لأقوم بعملية التحنيط..

– لا.. لا حاجة لى بذلك، لن ينفعنى التحنيط ولا الدفن كما تفعلون بموتاكم، اتركنى هنا، كل ما أطلبه منك أن تأخذ الأوراق وتمضى، وتسد فوهة القبر..

– لا.. لن أتركك وحدك..

Looloo
www.dvd4arab.com

وأخذ «إيب – خنسو» فى جمع الأوراق ولفها جيداً حتى يمكنه اخفاها فى ثيابه، وبينما هو منهمك فى عمله حانت منه التفاتة نحو الرجل فوجده ساكناً سكون الموتى، أسرع إليه يتحسس جسده، كان بارداً وليس به أى علامة من علامات الحياة.. مات الرجل الذى جاء ليستفتيه فى أمره، فلم يمهله القدر ليفعل.. تلفت حواليه فلم يجد شيئاً يغطى به جسده سوى ثوب قديم ملقى فى ركن الحجرة.. غطاه به ووقف ساكناً لا يدرى ماذا يفعل أو ماذا يقول.. هل يتلو صلاة أو دعاء مما تعلمه فى المعبد، إنه يعلم أن الرجل لا يعترف بهذه الأقوال ولا يؤمن بها.. لم يجد إلا أن يدعو له بالسلام ولروحه بالسكينة، وجر رجليه خارجاً من هذا المكان الذى أصبح موحشاً..

عندما خرج من الظلام لم يستطع أن يواجه ضوء الشمس القوى فأغمض عينيه للحظات حتى تعود على الضوء، شمر عن ساعده استعداداً للعمل بوصية الحكيم ليسد فوهة القبر، كان الحجر ثقيلاً، وحرارة الشمس تكاد تحرق جلده، والرمال الساخنة تلسع قدميه، وبينما هو منهمك فى العمل فوجىء بظل يمتد أمامه ففزع للحظة نظر خلفه ليجد «با – حور» بقامته الفارعة، سر فى داخله للوهلة الأولى، لكنه لما فطن للأمر غضب وثار فسأله:

– ما الذى أتى بك يا«با – حور»؟.. وكيف عرفت مكانى؟ هل كنت تتبعنى دون علمى.. لماذا؟

– نعم.. كنت أتتبعك.. كيف أكون على علم بأن حياتك فى خطر ولا أحميك؟ ما هذا المكان، وماذا تفعل هنا؟

– على كل حال ليس هذا وقت الثرثرة، تعال ساعدنى أولاً كى نسد هذا القبر.

– قبر؟! قبر من؟ هل دفنت أحداً هنا؟

كان يتكلم وقد بدأ بالفعل يساعده فى تحريك الحجر حتى سدا الفوهة

تماماً، وبدأ «إيب – خنسو» يهيل التراب على المدخل بحيث يخفيه عن الأعين، ثم التفت إلى صديقه مشيراً إليه بالعودة فأجابه واتخذا طريقهما معاً فيما كان «با – حور» يتأمل المكان حوله ثم نظر إلى «إيب – خنسو» الذى كان يمشى مطرقاً ووطأة الحزن الشديد بادية على وجهه، فسأله عما حدث، وعن هذا الذى دفنه منذ قليل، لم يلتفت «إيب خنسو» لكلام «با – حور» لكنه توقف فجأة وأمسك بذراعه قائلاً..

– اسمع يا«با – حور».. سأبوح لك الآن بسر خطير، ولولا ثقتى بك ما بحت به ولا أريدك أن تطلع عليه أحد مهما حدث..

فوجىء «با – حور» بهيئة «إيب – خنسو» الجادة، ولاحظ تعبيرات وجهه فلم يذكر أنه رآها من قبل فأدرك خطورة الأمر.. أكمل «إيب – خنسو» دون أن يترك له فرصة للكلام..

– إن هذه الأوراق التى أحملها تحوى أسراراً خطيرة ولو علم الكهنة بوجودها معى فلن يمنعهم شىء من أخذها حتى لو اضطروا لقتلى وقتل كل من يعلم بأمرها، وأنا أريد أن أخفيها فى مكان لا يصل إليه إنسان، هل يمكنك مساعدتى؟..

– ولو أنى لا أفهم شيئاً، لكنى لن أتخلى عنك أبداً، ولو كانت حياتى ثمناً لذلك ولكن، ما هذه الأهمية البالغة لبضعة أوراق لهؤلاء الكهنة، ثم إنك منهم، ألست بكاهن مثلهم؟..

– لا.. لم أعد كذلك، لم أعد منهم؟.. هذه الأوراق تكشف أكاذيب الكهنة وتدعو إلى الإله الواحد.. الإله الحق الذى سوف أدعو إلى الإيمان به..

– أى إله هذا.. أهو إله غير «رع» و«بتاح» و«خنوم» وغيرهم من هؤلاء الذين تؤمنون بهم.. أهو إله جديد لم يعرفه أحد بعد؟..

– ليس هناك إله جديد وإله قديم يا«با – حور».. إنه إله واحد أزلى، وما ذكرت الآن إلا أسماء ليس لها حول أو قوة..

Looloo
www.dvd4arab.com

بهت «با – حور» وأحس أن صاحبه يضع نفسه فى حفرة لن ينجيه منها أحد، هو الذى لم يكن يؤمن بالآلهة أحس بالخوف على صديقه، تابع «إيب – خنسو»..

– أنا أعلم بخطورة ما أنا مقدم عليه، لكننى لا أثق فى أحد غيرك.. ربما يتربصون بى، وربما يقتلوننى، هذا لا يهمنى، ما يهمنى أن تخبأ هذه الأوراق فى مكان بعيد عن أعين الكهنة والناس أجمعين، هل تفهمنى يا«با – حور»؟

– أنا لا أحتاج أن أفهم كى أساعدك، لكن ماذا عن العرش الذى ينتظرك؟

– لا أعرف.. عندما أعلن عن دعوتى هذه، لا أعرف ماذا يمكن أن يحدث، وعلى أية حال، أنا لا أرفض العرش.. بل وسأطالب بحقى فيه..

خاتمة

إلى هذا الحد تعتبر البردية انتهت، فالجزء الباقى لا يمكن قراءته وليس هناك مفر من الاعتماد على ما تركه لنا كتاب التاريخ عن هذه الفترة المضطربة من تاريخ البلاد، وكما نعلم فإن فترات الاضطرابات لا تترك آثاراً واضحة وثابتة يمكن أن يحتفظ بها الزمن لقرون طويلة، بل يتم كل شىء على عجل، بدليل العثور على مبان ومقابر ومعابد لم يتم استكمال بنائها..

أما عن نهاية قصتنا فقد اختلفت فيها الأقوال وتضاربت، لكن الثابت تاريخياً أنه كان هناك ملك من ملوك الأسرة الخامسة يدعى «نوسر رع»، وأنه تولى العرش بعد الملك «خا نفر رع» والذى لم نعرف عدد سنوات حكمه، مما يؤكد وجود اضطرابات وقلاقل داخل القصر الملكى، وأن هذا الملك «نوسر رع» حكم لمدة ثلاثين سنة، بالإضافة إلى مدة مجهولة ربما

شاركه فيها ملك آخر.. إلا أنه لم يكن هناك ما يثبت أن هذا الـ«نوسر» كان هو بطل قصتنا، ويرجح البعض أنه يمكن أن يكون الكهنة تمكنوا من تنصيب «جسر» اعتماداً على رواية الكاهن «كارع» وتعمدوا نشرها بين الناس بالرغم من علمهم بكذبها، وأن علامة الملك التى كانت فى كتف «إيب – خنسو» تتطابق مع نصفها الآخر الموجود مع الملكة «عنخ تاوى» بينما «إيب – خنسو» الذى يعنى اسمه «قلب القمر» كما سماه الرجل الطيب «مرى إن بتاح» لم يعرف أحد عن نهايته شيئاً مؤكداً واختلفت الروايات مابين قائل أنه اختفى تماماً بعد أن هاجت عليه الدنيا كلها بتحريض من الكهنة، سواء كهنة الشمس أو كهنة «بتاح» أنفسهم، وهناك من ادعى أن أسرته الملكية أخفته فى الجنوب، وأنه عثر فى زمن لاحق على قبر يعتقد أنه يخصه فى منطقة النوبة العليا، وتروى بعض الأخبار أنه اختبأ فى نفس القبر الذى كان يعيش فيه الحكيم «إيبور» وبعلم صديقه المخلص «با – حور».. وبين قائل إنه قتل فى ظروف غامضة.. ولكن النفر القليل الذين صدقوه وآمنوا بما يقول يؤكدون أنه لم يمت ولم يقتل، لكنه اختفى وسوف يعود حتماً فى زمن آخر وأنهم ظلوا ينتظرون عودته ويغرسون هذه العقيدة فى نفوس أولادهم لقرون طويلة..

أما عن الأوراق التى كانت بحوزة «إيب – خنسو» والتى استأمن عليها صديقه المخلص «با – حور» فلم يتمكن أحد من الكهنة من العثور عليها رغم البحث المحموم عنها فى كل مكان، وهناك إشارات إلى أن شخصاً ما عثر عليها بطريق الصدفة فى زمن لاحق.. وهو ما سنحاول التحقق منه فى القريب العاجل.

Looloo
www.dvd4arab.com

هذه الطبعة من سلسلة روايات الهلال للأولاد والبنات
تصدرها دار الهلال
بالاشتراك مع المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة